موسوعة العقيدة والأديان

علاء الخضري

٢

العقيدة الإسلاميّة

في مواجهة التيارات الإلحادية

د. فرج الله عبد الباري

أستاذ العقيدة والأديان



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم...

وبعد:

إن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من أهم الواجبات التي يجب على العاقل أن يعلمها، ويهتم بها، ولذلك وجب على العلماء والباحثين أن يهتموا ببيان حقيقة أركان الإيمان التي لا يتحقق لأحدٍ النجاة في الآخرة ولا السعادة في الدنيا، إلا إذا أيقن بها وعمل بمقتضاها.

ولما رأيت الحاجة ماسة لبيان تلك الأركان عقدت العزم وتوكلت على الله، لبحث هذه الأركان بحثا علميًا يجمع بين العمق، واليسر.

فعرفت في البداية معنى العقيدة لغة واصطلاحًا وأهميتها ومدى الحاجة إليها، ثم بينت الأسماء التي تطلق على العقيدة، كالإيمان، وعلم التوحيد، وعلم أصول الدين، وعلم الفقه الأكبر.

ومن أجل التركيز على المنهج القرآني في دراسة مسائل العقيدة، درست بعض مسائل العقيدة وكيف كان فهم الصحابة لها، بعد بيان الرسول ﷺ لهم وانتهيت إلى أن صحابة النبي ﷺ ما كانوا يتكلفون فهم الأمور على غير مرادها، وكان لسان حالهم بعد أن يقرءوا آيات القرآن التي فيها أسماء الله وصفاته، أو بعض الآيات التي توهم التشبيه أن يقولوا سمعنا وأطعنا.

ولكن بعد عهد رسول الله ﷺ وفي آخر عهد الخلفاء الراشدين بدأت بعض الفرق تظهر وبرزت رؤوس مسائل عقدية كان الاختلاف حولها، الأمر

الذي أدى إلى ظهور ما يعرف بعلم الكلام بمسائله وقضاياه ولقد رصدت بعضًا من هذه الاختلافات، وانتهيت إلى أنه كلما بعد العهد عن رسول الله ﷺ، كلما ظهرت بعض الفرق التي تبعد في فهمها لمسائل العقيدة بعيدًا عن فهم الصحابة والتابعين.

في الفصل الأول: تحدثت عن وجود الله ومنهج القرآن في إثبات وجود الله، ثم تساءلت هل أنكر العرب وجود الله؟ وانتهيت إلى أن العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم لم ينكروا وجوده، وأثبت أن القرآن الكريم كان يولي أهمية قصوى لإثبات الوحدانية.

ثم تناولت بإيجاز دليل المتكلمين في إثبات وجود الله، ودليل الفلاسفة، ثم تحدثت باستفاضة حول شبه منكري الألوهية وعرضت بالتفصيل شبه القائلين بأزلية الكون، والقائلين بأن العالم خلق بالصدفة وليس بالقصد والتدبير، وشبهة القائلين بالتطور في خلق الكائنات إنكارًا للخلق من قبل الله.

أما الفصل الثاني: فكان عن توحيد الله في أسمائه وصفاته، عرضت فيه لإثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وانتصرت لمذهب السلف في إثبات الأسماء والصفات.

ثم عرضت لشبهة غير الموحدين، متمثلة في الوثنيين، فعرضت شبهتهم في اتخاذ الأصنام شفعاء لهم عند الله تعالى وشبهة عبادتهم للكواكب وشبهة ادعائهم اتخاذ الله ولدًا.

ثم احتجاجهم بالقدر على شركهم ووضحت منهج القرآن الكريم في الرد على تلك الشبهات.

واستأنست بمفهوم العلماء وتفسيرهم واستنباطهم الحجج من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ لدحض مفتريات المشركين ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان.

ثم عقبت بتعقيب حول اهتمام القرآن الكريم بالوحدانية إثباتًا بالأدلة البرهانية والإقناعية والخطابية، وبينت أن ملاك الأدلة قدمها القرآن الكريم، لإقناع النفس البشرية بتوحيد الله سبحانه، الذي جاءت به جميع الرسالات من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ.

أسأل الله تعالى أن يمكن لدينه وأن يوفقنا لخدمة ديننا الحنيف وأزهرنا الشريف.

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»

أ.د/ فرج الله عبد الباري أبو عطا الله

أستاذ العقيــدة

بجامعة الأزهر

* * *



مدخل

ويشتمل على المسائل التالية:

المسألة الأولى: معنى العقيدة لغة واصطلاحًا:

ورد في أساس البلاغة: «عقد بناء معقود ومُعَقَّدٌ، جُعل عُقودًا أي طاقات معطوفة كالأبواب، وعَقَد بناءه، وعقَّده، وتعقد السحاب إذا صار كأنه عقد مبني» [١].

وورد في معجم الرائد: «عقد يعقد عقدًا الحبل أو نحوه جعل فيه عُقدة، وعقد البيع أو اليمين أو العهد أو نحوها أحكم شده وأكده» [٢].

وفي المعجم الوسيط: «العقيدة: هي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وفي الدين ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل والجمع عقائد» [٣].

وقد وردت مادة عقد في القرآن الكريم وكان يقصد بها الإحكام والربط بين شيئين، والتوثيق.

يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة :٢٣٥] .

ويقول عز وجل: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة :٢٣٧] .

ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء :٣٣].

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري (١٣١/٢).

(٢) الرائد جبران مسعود (١٠٣٨/٢).

(٣) المعجم الوسيط (٦١٤/٢).

ويقول عز وجل: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة :١] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة :٨٩].

ويقول عز وجل: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه :٢٧-٢٨].

ويقول جل وعلا: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق :٤].

وكلمة العقيدة في معناها اللغوي تعني الميثاق الذي ورد في القرآن الكريم بعدة معانٍ من بينها العهد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران :٨١] .

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة :١٢] .

وكما في قوله تعالي: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب :٧] .

هذه الآيات جميعها وردت فيها كلمة الميثاق بمعنى العهد والعقد (١).

أما معنى العقيدة في الاصطلاح فهي: «**مجموعة من قضايا الحق المسلمة بالسمع والعقل والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه ويثني عليها صدره جازمًا بصحتها قاطعًا بوجودها وثبوتها**» (٢).

ونستطيع أن نقرر في وضوح أن العقيدة الإسلامية هي الإيمان الجازم بالله من ناحية وحدانيته واتصافه بصفات الكمال وتنزيهه عن جميع صفات النقص، والإيمان الجازم بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره.

إن العقيدة في الإسلام تعني الإيمان كما ورد في القرآن الكريم بمعنى أنه

---

(١) انظر : تفسير الجلالين (ص٤١٩)

(٢) مباحث في علوم العقيدة: د/آمنة نصير (ص ١٠) مكتبة الكليات الأزهرية.

في حقيقته ليس مجرد قول باللسان، ولا عمل بالبدن فحسب، وإنما هو عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بجوانبها من كل ناحية سواء الإدراك أو الإرادة أو الوجدان، فلا بد من إدراك ذهني تتكشف به حقائق الوجود على ما هي عليه في الواقع وهذا التكشف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلهي المعصوم [(١)]، الذي لن تجده البشرية إلا في دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ خاتمًا للأنبياء والرسل.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥][(٢)].

ثانيا: وحدة العقيدة:

ينبغي أن نقرر أن العقيدة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر واحدة مع جميع الأنبياء والمرسلين من أول سيدنا آدم إلى سيدنا رسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى :١٣] .

فأصول العقائد واحدة بين جميع الأنبياء والمرسلين ولكن الاختلاف يكون في التشريعات، فكل أمة لها من التشريعات ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها ومستواها الفكري والروحي.

يقول سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة :٤٨].

وينبغي أن نقرر في الوقت ذاته أن دين جميع الأنبياء هو الإسلام، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران :١٩] .

ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران :٨٥] .

---

(١) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية: د/فتحي الزغبي (ص ٨٣) .

(٢) انظر تفسير الجلالين (ص ٥١٧) .

ثالثًا: أهمية علم العقيدة:

علم العقيدة أو الإيمان أو التوحيد، أهم العلوم وأشرفها فهو بمثابة الرأس والقلب من الجسد، فكل العلوم تابعة لعلم العقيدة، أعني العلوم الشرعية، فإذا أراد الإنسان أن يدرس علم التفسير مثلاً فلا بد أن يتيقن أن القرآن الكريم كلام الله أنزله على قلب سيدنا محمد ﷺ وأن إثبات الرسالة من مفردات علم العقيدة، وإذا أراد أن يدرس علم الفقه والأحكام الشرعية المستنبطة من أدلتها، فلا بد أن يعتقد أولاً صدق الرسول ﷺ، وهكذا دواليك، ومن ثمَّ فإن علم العقيدة تكمن منفعته في الدنيا بانتظام أمر المعاش وأما في الآخرة فهو النجاة من النار والفوز بالجنة.

وكما يقرر التفتازاني: «**بأنه أشرف الغايات مع الإشارة إلى شدة الاحتياج إليه وابتناء سائر العلوم عليه والإشارة بوثاقة براهينه لكونها يقينيات يتطابق عليها العقل والشرع**» [(١)].

إن حاجة البشر إلى العقيدة الصحيحة فوق كل ضرورة؛ لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون مع ذلك أحب إليها مما سواه ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه [(٢)].

وتتمثل أهمية علم العقيدة في:

١- الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة :١١] .

٢- إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة.

٣- حفظ قواعد الدين على أن تزلزلها شبه المبطلين.

---

(١) انظر شرح المقاصد للسعد التفتازاني (١ / ٨) بتصرف يسير.

(٢) شرح الطحاوية بتصرف (ص ١٧) تحقيق الشيخ: أحمد شاكر.

٤- أن يبني عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها.

٥- صحة النية والاعتقاد إذ بها يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين.

التضحية من أجل العقيدة:

للعقيدة ثمرات كثيرة يجنيها المسلم في حياته وبعد مماته، ففي حياته يكون له مبدأ يدافع عنه ويموت في سبيله ويضحي من أجله، ولقد ذكر القرآن الكريم الكثير من النماذج لأصحاب العقائد الثابتة الذين دفعوا ثمنًا لعقيدتهم ويأتي على رأس هؤلاء جميعًا الأنبياء والرسل.

من أجل الدفاع عن العقيدة وجد الشهداء الذين قابلوا الموت بوجوه ضاحكة، ونفوس مستبشرة، ولسان أحدهم يقول فزت ورب الكعبة.

من أجل الدفاع عن العقيدة الصحيحة وُجد المؤمنون الأوفياء الذين ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب :٢٣][١].

وما أصحاب الأخدود وأهل الكهف وزوجة فرعون وصحابة النبي ﷺ إلا نماذج حيَّة، واضحة أمامنا، لمن يريد أن يقتدي بهم ويسير على دربهم ليفوز بما فازوا به من عز وكرامة في الدنيا، وجنات ونهر في الآخرة، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة :١١١].

* * *

(١) وانظر العقيدة والأخلاق (ص ٨-٩)

رابعًا: الأسماء التي تطلق على علم العقيدة:

١- علم التوحيد:

وسُمي بعلم التوحيد لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه [١]، ولذلك اشتهر بين الدارسين والعلماء بعلم التوحيد إذ ما جاء رسول ولا نبي إلى قومه إلا بالتوحيد، يقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥]. ويقول عز وجل: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف :٤٥].

يقول الإمام محمد عبده: «**أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسُمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ** [٢]، وكل الأنبياء والمرسلين من قبله.

وقد عُرفت تسمية علم العقيدة بعلم التوحيد من قديم حيث عُرف كتاب التوحيد للإمام أبي منصور الماتريدي، وكتاب التمهيد لقواعد التوحيد للإمام النسفي، وشاعت في العصور المتأخرة فألف الشيخ اللقاني جوهرة التوحيد التي شرحها الإمام البيجوري وألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتاب «**التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**» وجمال الدين القاسمي له كتاب يسمى «**دلائل التوحيد**» والشيخ محمد عبده له «**رسالة التوحيد**»، وعُرف تدريس العقيدة الإسلامية في معاهد الأزهر الشريف وجامعته باسم «**مادة التوحيد**» [٣].

وهذه التسمية هي ما نستريح إليه ونفضل إطلاقها على علم العقيدة لأنه فضلاً عن أن صفة الوحدانية أشهر مباحث علم التوحيد، فإن التوحيد علم

---

(١) البيجوري على الجوهرة (ص ١٦).

(٢) رسالة التوحيد (ص ٢٠)

(٣) انظر بتصرف دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ٥١ ـ ٥٢)

على دين الإسلام، كما أن التثليث علم على النصرانية المبدلة والإسبات أي الراحة يوم السبت علم على اليهود والتناسخ علم على الهنود كما يقرر البيروني [(١)].

٢- علم الفقه الأكبر:

أول من أطلق على علم العقيدة علم الفقه الأكبر الإمام أبو حنيفة ووجه التسمية بهذا أن علم التوحيد هو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع.

يقول شارح الطحاوية: **«ولهذا سمي الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين الفقه الأكبر؛ لأن حاجة العباد إليه فوق كل حاجة وضروراتهم إليه فوق كل ضرورة»** [(٢)].

وقد رجح بعض الباحثين المعاصرين هذه التسمية ودلل عليها ببعض الأدلة منها:

١- أنها تسمية ذات أسس عريقة قرآنية فضلاً عن خلوها من المآخذ التي تثيرها التسمية المشهورة بعلم الكلام.

٢- أن هذه التسمية ترفع مكانة هذا العلم الباحث في الأحكام الشرعية الاعتقادية الذي سماه **«بالفقه الأكبر»** فوق علم الفقه أو العلم الباحث في الأحكام العملية الفرعية من حيث إن هذه الأخيرة تنبني على صحة الاعتقاد بأصول الدين من معرفة بالشارع سبحانه، وبصحة ورود الشريعة ووجوب التزام المكلف بها، ومن ثمَّ كانت هذه أصولاً والأولى فروعًا [(٣)].

٣- أنها تبين ارتباط هذا العلم **«التوحيد»** بعلوم الشريعة الإسلامية ومكانته بين العلوم من ناحية، كما أنها من ناحية أخرى تتيح له التوسع والتفتح

---

(١) انظر تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٣٩) عالم الكتب الطبعة الثانية ١٩٨٣م
(٢) شرح الطحاوية (ص ١٧)
(٣) المدخل لدراسة علم الكلام (ص ١٤)

ليتضمن بحث الأصول الفكرية للدين الإسلامي سواء كانت مما يلزم اعتقاده أو مما ينبثق عن هذه العقيدة أو يرتبط بها من أصول ومبادئ عامة تصور موقف الإسلام من الكون والحياة والإنسان [١].

٣- علم أصول الدين:

شُمي علم العقيدة بعلم أصول الدين لأن المسائل التي يقوم بإثباتها والدفاع عنها هي الأصول العقدية التي ينبغي على المكلف العلم بها.

يقول شارح الطحاوية: «**فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة لفقه الفروع**» [٢].

وكثيرًا ما كان العلماء يسمون بحوثهم في العقيدة بعلم أصول الدين أو أصول الملة أو الديانة، فالإمام الأشعري ألف كتابه: «**الإبانة عن أصول الديانة**»، وللجويني كتاب سماه: «**الشامل في أصول الدين**»، والبغدادي ألف كتابًا في العقيدة سماه: «**أصول الدين**»، وللإمام فخر الدين الرازي كتاب معنون بـ «**الأربعين في أصول الدين**»، يقول في مقدمته: «**فهذا مختصر يشتمل على خمسة أنواع من العلوم المهمة فأولها علم أصول الدين**» [٣].

وللغزالي أبي حامد كتابًا اسمه: «**الأربعين في أصول الدين**» تحدث فيه عن كثير من الأصول العقدية التي تتعلق بالإلهيات والسمعيات [٤].

وكذلك عندما أنشئت الكليات في الجامع الأزهر أطلق علي الكلية التي تقوم بتدريس مادة العقيدة الإسلامية وما يتصل بها من قريب أو بعيد كلية أصول الدين [٥].

---

(١) المدخل لدراسة علم الكلام :د/ حسن الشافعي (ص ١٤ ، ٣٢ ، ٣٣)
(٢) شرح الطحاوية (ص ١٧)
(٣) الأربعين في أصول الدين بهامش محصل أفكار المتقدمين (ص ٣)
(٤) انظر دراسات في العقيدة (ص ٤٦)
(٥) نفس المصدر (ص ٤٧)

٤- علم الكلام:

من أشهر الإطلاقات على علم العقيدة «علم الكلام» لأن أبوابه عُنونت بالكلام في كذا، أو لأنه قد كثر الاختلاف فيه حول مسألة الكلام [(١)].

يقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد: «وقد يسمى» أي علم العقيدة: **«علم الكلام، إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم، وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها وإن كان أصلًا لما يأتي بعدها، وإما لأنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما»** [(٢)].

وكلام الشيخ محمد عبده تلخيصًا لما قاله صاحب المواقف وشارح المقاصد وما أورده صاحب العقيدة النسفية.

وينفذ الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى السبب الحقيقي لتسمية علم العقيدة بعلم الكلام يقول: **«وإنما سمي البحث في الشئون الاعتقادية كلامًا وسمي أهله متكلمين لأحد وجهين:**

أولهما: يؤخذ مما رواه جلال الدين السيوطي (٩١٤هـ) في كتاب **«صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام»** وأخرج عن مالك رضي الله عنه المتوفى (١٧٩هـ) قال: **«إياكم والبدع. قيل: يا عبد الله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان»**.

ويورد الشيخ مصطفى عبد الرازق نصوصًا كثيرة عن رسول الله ﷺ وعن

(١) شرح البيجوري على الجوهرة (ص ١٦)
(٢) رسالة التوحيد (ص ٢٠ - ٢١)

الصحابة والسلف تذم الكلام والذين يشتغلون به.

ثانيهما: يؤخذ مما نقله ابن عبد البر المتوفى (٤٦٣هـ) في كتاب «**مختصر جامع بيان العلم وفضله**»، عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: كان مالك بن أنس يقول: «**الكلام في الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم والقدر وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما فيه عمل**» (١).

وهو تعليل مقبول إلى حد كبير من الناحية الاصطلاحية ؛ لأن أرباب الفرق كانوا يُعرفون بالمتكلمين في مقابل السلف الذين كانوا يسكتون عن الكلام فيما نهوا عن الخوض فيه.

تعريف علم الكلام على النحو الاصطلاحي
الذي اشتهر به عند مؤرخي العقيدة وأرباب الفرق والمقالات

أولاً: عند الإمام الغزالي:

يقول عنه: «**وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة**» (٢).

ويشرح الغزالي الغاية من علم الكلام والاشتغال به فيذكر: «**أن الله ألقى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورًا مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرَّك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله**» (٣).

ويعلق المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود على كلام الغزالي بقوله: « نرى

---

(١) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٢٦ - ٢٦٧) بتصرف.

(٢) المنقذ من الضلال (ص ٧٨)

(٣) نفسه (ص ٧٩)

الإمام الغزالي مع هدمه في النهاية لعلم الكلام مجاملًا للمتكلمين» [١].

وهذا كلام الإمام الدكتور عبد الحليم محمود الخبير المحيط بآراء الغزالي في المتكلمين والفلاسفة وسائر الفرق.

ثانيًا: عند ابن خلدون:

يعرف ابن خلدون علم الكلام بأنه: «**علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات من مذاهب السلف وأهل السنة»** [٢].

ولعلنا نجد وجه الشبه واضحًا بين تعريف ابن خلدون وتعريف الإمام الغزالي من قبله، ومفاد التعريفين أن السلف أخذوا العقائد الإيمانية من الكتاب والسنة ثم جاء المتكلمون وأوضحوا تلك العقائد وجادلوا بها المعاندين ليدفعوا البدع التي أثارها المبتدعون حول عقائد السلف.

ويعرفه التفتازاني بقوله: «**الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية وموضوعه العلوم من حيث ما يتعلق به إثباتها ومسائله القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية، وغايته تحلية الإيمان بالإيقان، ومنفعته الفوز بنظام المعاش ونجاة المعاد فهو أشرف العلوم»** [٣].

وواضح من تعريف التفتازاني أنه يجعل علم الكلام قائمًا على الأدلة اليقينية المستمدة من الكتاب والسنة.

ويعرفه عضد الدين الإيجي بأنه: «**علم يقتدر به معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»** [٤].

---

(١) هامش المنقذ من الضلال (ص ٧٨)

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٠٠)

(٣) شرح المقاصد انظر (ص ١٧٩ ، ١٩٠) تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة

(٤) المواقف (ص ٧)

ويشرح التعريف فيذكر: «**أن المراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ فإن الخصم وإن أخطأناه لا نخرجه من علماء الكلام**» (١).

ويلاحظ الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الإيجي في تعريفه يجعل علم الكلام أداة دفاع لكل معتقد عن عقيدته سواء أكانت على منهج السلف أو كانت على غيره؛ لأن مفاد تعريفه أن دفاع المبتدع عن عقيدته بالبراهين العقلية كلام أيضًا (٢).

خامسًا: حكم الاشتغال بعلم الكلام:

دار أخذ ورد بين العلماء في الاشتغال بعلم الكلام ما بين مُحرم له وما بين مجوز للاشتغال به، بل وبعض العلماء أوجب الاشتغال به لمن كانت عنده القدرة على الجدال.

قد لخص الإمام الرازي حجج المانعين للاشتغال بعلم الكلام ثم فندها:

١- حجج القائلين بعدم جواز الاشتغال بعلم الكلام:

قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف :٥٨] فيه ذم الجدل وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ [الأنعام :٦٨] قالوا: فأمر بالإعراض عنهم عند خوضهم في آيات الله تعالى.

٢- استدلوا بقوله ﷺ: «**إذا ذكر القدر فأمسكوا**» وبأن هذا العلم لم تتكلم فيه الصحابة فيكون بدعة، وما نقل عن مالك بن أنس: «إياكم والبدع قيل: وما البدع يا أبا عبد الله؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون».

---

(١) المواقف (ص ٧)

(٢) التمهيد (ص ٢٦٢)

وسئل سفيان بن عيينة عن الكلام فقال: اتبع السنة ودع البدعة.

وقال الشافعي رضي الله عنه لأن يبتلى العبد بكل ذنب سوى الشرك خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من الكلام.

هذه كانت حجج المانعين للاشتغال بعلم الكلام بإيجاز [(١)].

وقد أجيب عن هذه الحجج بالآتي:

١- أن الجدل في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف :٥٨] محمول على الجدل بالباطل، توفيقًا بينه وبين قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل :١٢٥] وأما قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] فالخوض ليس هو النظر بل الخوض في الشيء هو اللجاج والخصومة المؤدية إلى النزاع.

٢- أما قوله ﷺ: «**إذا ذكر القدر فأمسكوا**» يقول عنه الرازي: فضعيف؛ لأن النهي الجزئي لا يفيد النهى الكلى.

أما استدلالهم بأن الإجماع منعقد على أن الصحابة والسلف لم ينشغلوا به.

فلو كان المراد أن الصحابة لم يستعملوا ألفاظ المتكلمين فمسلم، لكنه لا يلزم منه القدح في الفقه ألبتة، ثم إن الصحابة لم يستعملوا ألفاظ الفقهاء ولا يلزم منه القدح في الفقه، ثم إن الصحابة لم يستعملوا هذه الألفاظ لأن مثلهم كمثل قوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يقاتلهم فلا يتكلفون السلاح [(٢)].

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (١/ ١٠٠-١٠٥) وانظر تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية (ص٢٧١ - ٢٧٣) ، وانظر مقدمة المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود (ص ٣٩ - ٤٠) وانظر: المدخل لدراسة علم الكلام (ص) د/حسن الشافعي.

(٢) انظر هذه الحجج مفصلة لدى الرازى فى التفسير الكبير (١/ ١٠٢-١٠٤)،وانظر المدخل لدراسة علم الكلام (ص ٤١ - ٤٢).

وأما تشديد السلف على الكلام فهو محمول على أهل البدع والمخالفين للكتاب والسنة وهذا ما يشهد له اشتغالهم هم أنفسهم بلون من الكلام يتفق في رأيهم مع القرآن الكريم ويعتمد على السنة الصحيحة ومدارك العقول.

فألف أبو حذيفة الفقه الأكبر والفقه الأوسط والوصية والعلم والمتعلم.

وناظر الشافعي حفصًا الفرد وغيره وهو من المتكلمين المبتدعين، ورد على المرجئة، وألف الإمام أحمد كتاب: «**الرد على الجهمية**» وكلها مؤلفات في الكلام إلا أنه كلام موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة جاء على نهج الكتاب والسنة.

موقفنا إزاء هذه الحجج من المانعين والمجوزين:

نرى أن من التزم من المتكلمين بأدلة الكتاب والسنة والأدلة العقلية المستقاة منهما فلا ضير عليه بل هو مأجور إن شاء الله، أما من خالف الكتاب والسنة وجادل بالباطل لا لنصرة الحق في ذاته وإنما لنصرة مذهبه أو القواعد والأصول التي بُني عليها مذهبه، فهو مذموم، ومرتكب ما نُهي عنه.

وكما يقول أستاذنا الدكتور حسن الشافعي بعد أن استعرض رأي المانعين والمجوزين باستفاضة:

«أحسب أن من شاركنا من القراء في استعراض المواقف السابقة ثم دعته دواع فكرية أو اجتماعية أو تعليمية للاشتغال بعلم الكلام يستطيع أن يقدم على ما يريد دون حرج في الصدر أو تردد في الخطو ينشأ من السؤال التقليدي حول مشروعية البحث في علم الكلام» [1].

على أن يكون القصد من وراء الاشتغال نصرة الإسلام والدفاع عنه كما فعل علماء الكلام، في بداية نشأته، يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم: «**ولقد أرغمت التحديات متكلمي الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التي يدور فيها**

(١) المدخل لدراسة علم الكلام (ص ٤٨)

الاحتكاك بين الإسلام وتلك العقائد لقد كان لهذا العلم في هذا المجال هدف جليل يتمثل في المحافظة على عقائد المسلمين وكان عليه أن يواجه في هذا الموقف أعتى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاحًا وأشدهم تمكنًا وأكثرهم تحالفًا وأوسعهم تنوعًا» (١).

بل إن أستاذنا الدكتور يحيى هاشم ليعتبر أن من فضل الله على الأمة أن وفق علماء الكلام للذود عن الإسلام، يقول: «**وإن المرء ليكاد يؤخذ من هول تصوره لما كان يمكن أن يحدث لو أن هذا الهجوم العقدي وجد المسلمين فراغًا والتقى فيهم بالمواقف السلبية**» (٢).

وحول الجدل والتفرق بين المسلمين الذي صاحب نشأة علم الكلام يقول: «**ومهما يكن القول في آثار هذا العلم التي لا تكاد تمحى في إحداث المذاهب وترسيخ التفرق وإثارة الجدل فإن قيامه بعبء هذا الهدف الجليل، يحتم علينا إغضاء الطرف عما اضطر إليه من ذلك**» (٣).

ومفاد كلام أستاذنا أن ما قدمه علم الكلام في بدايته من إيجابيات يفوق سلبياته.

أقسام علم العقيدة:

جرت عادة العلماء على تقسيم علم العقيدة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الإلهيات: ويختص الحديث في هذا القسم عن ذات الله من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز في حقه عز وجل، وكذا مسألة وجود الله ووحدانيته ومسألة الصفات والقضاء والقدر.

القسم الثالث: السمعيات: وهي التي تتعلق بالأمور التي لا طريق إلى إثباتها

---

(١) انظر أستاذنا الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل: الأسس المنهجية (ص ٩)

(٢) نفس المصدر السابق (ص٩)

(٣) نفسه وانظر عوامل وأهداف علم الكلام طبعة مجمع البحوث الإسلامية

إلا بالنصوص الواردة عن الله وعن رسوله ﷺ كاليوم الآخر ومشاهدة الجنة والنار، وكالملائكة، والجن والشياطين، كل هذه العقائد من السمعيات، والتي يتكفل علم العقيدة بإثباتها والاستدلال عليها. هذا هو التقسيم المشهور.

وهناك من يقسم علم العقيدة إلى الإلهيات، والسمعيات ويدخل النبوات في السمعيات من حيث إن تصديق النبي يتوقف على السمع.

وهناك مباحث أخرى تتعلق بعلم العقيدة مثل الأسماء والأحكام ومبحث الإمامة الذي يذكر غالبًا في نهاية كتب العقيدة، ويبدو أن أهل السنة والجماعة ألحقوا هذا القسم بكتب العقيدة لأنهم كانوا يناقشون ويجادلون الشيعة، في كون الإمامة من أركان الدين.

المسألة السادسة: الأمور العقدية في عهد الرسول ﷺ:

جاء محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، واهتم القرآن الكريم بتأصيل العقيدة وتأسيسها خاصة في المرحلة المكية، وجميع أركان العقيدة شملها القرآن الكريم ببيان واضح، وبينها النبي ﷺ.

على أنه كانت تعرض أسئلة عقدية على الصحابة فكانوا يسألون النبي ﷺ عنها، ويستوضحون معانيها، ولكن صحابة النبي ﷺ كان يشغلهم العمل بالقرآن عن الخوض في متشابهه وكانوا لا يتكلفون الأسئلة ولا يتفيهقون ولا يتشدقون.

وهناك بعض آيات القرآن الكريم مما يتعلق بالعقيدة فسرها النبي ﷺ وتلقاها الصحابة بالقبول والتسليم.

ففي قول الله تعالى فيما حكاه عن اليهود: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة :٦٤].

فسر النبي ﷺ هذه الآية، فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار**»، وقال: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**» (١).

قال الترمذي: «**هذا الحديث حسن صحيح. وقد روته الأئمة هكذا: يؤمن به كما جاء من غير أن يفسر أو يتوهم**» (٢).

هنا لم يسأل الصحابة هل اليد بمعنى القدرة؟، أو يسألون عن كيفية ملأ يد الله ولم يسألوا عن العرش وكيفيته والميزان وحقيقته، وإنما كان يكفيهم بيان النبي ﷺ وسكوته.

ومن قبيل هذا ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأراضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول: «**أنا الملك أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحبر تصديقًا له ثم قرأ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] » (٣).

هنا لم يسأل الصحابة عن معنى الإصبع؛ لأنهم لم يكن لهم هم إلا التصديق والعمل النافع، وكانوا يتوقفون عند بيان رسول الله ﷺ سواء فيما سألوه عنه أو أخبرهم به أو سكت عنه ﷺ.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. قال: «**أتدرون ما أخبارها**».

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] (٢٠٢/٣)

(٢) سنن الترمذي (٥ / ٣٤)

(٣) انظر: فتح الباري (٨ / ٤١٢)

عمل على ظهرها تقول: عمل كذا ، وكذا، وكذا، فهذه أخبارها» [(١)].

وقد بين ﷺ معنى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وزوجاته ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم من ينظر إلى الله غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة :٢٢-٢٣][(٢)].

هكذا فسر وبيَّن ﷺ وقبل الصحابة - بالتسليم - ما ورد عنه ﷺ، وإن أراد القارئ أن يعرف الفرق بين تلقي الصحابة لهذه الآية وبين غيرهم من علماء الكلام فلينظر إلى كتب المتكلمين وما أثاروه حول هذه الآية ودلالتها [(٣)].

لقد نهى القرآن الكريم عن الجدال بغير حق وإن كان الله عز وجل قد أفرد آيات كثيرة لجدال المشركين في قضايا الوحدانية والنبوة واليوم الآخر وجادل اليهود والنصارى فيما كانوا يثيرونه حول الوحي والنبوة، إلا أنه لا يمد في حبل الجدل حرصًا على الألفة.

وكثيرًا ما تختم آيات الجدل بمثل قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج :٦٨-٦٩][(٤)].

هذا الجدل في العقائد عرض له القرآن للحجة وعلى مقدارها من غير أن يشجع المسلمين على المضي فيه، بل هو قد نفرهم منه في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير باب ومن سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة :١] (٥/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) تحفة الأحوذي (٧ / ٢٧٠).

(٣) انظر الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٢٣٣) وانظر الكشاف للزمخشرى (٤ / ١٩٢) وانظر الفصل (٣ / ٢ - ٣).

(٤) انظر تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٧١).

ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة :١٤][(١)]، وهذه العداوة والبغضاء بسبب الجدال والاختلاف والشقاق الذي ذمه الله عز وجل في كتابه، ونهى المؤمنين عنه إلا بالتي هي أحسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت :٤٦].

ونلاحظ أن الله - رب العالمين - لم يطلب الحسن في الجدال وإنما طلب الأحسن حتى ينتبه المجادل المسلم جيدًا لما ينبغي أن يكون عليه فكرًا ونفسًا ولفظًا [(٢)].

ولذلك وقف النبي ﷺ ضد الجدال والمراء في الدين وحذر الصحابة منه والأمة من أضراره.

وقد وردت الأحاديث عن النبي ﷺ التي تنهى عن الجدال والمراء وورد عن السلف الصالح آثار تسير في اتجاه التحذير من الجدال والخصومة والتقعر والبحث عن دقيق الأمور وغوامضها والبحث في المتشابه منها ما أورده السيوطي عن كتاب «**ذم الكلام وأهله**» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي المتوفي سنة (٤٨١هـ)، أخرج عن طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر فخرج مغضبًا حتى وقف عليهم فقال: «**يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضًا ما عرفتم منه فاعملوا وما تشابه فآمنوا به**».

وأخرج عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه ثم قال: أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ ما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا».

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير (١ /٤٩٨)

(٢) مدخل إلى الاستدلال القرآني (ص ٩٠).

وأخرج عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع قالوا: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب غضبًا شديدًا لم يغضب مثله ثم انتهرنا قال: «**يا أمة محمد لا تهيجوا على أنفسكم، ثم قال: أبهذا أمرتكم؟ أو ليس عن هذا نهيتكم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا ثم قال: ذروا المراء** [(١)] لقلة خيره، ذروا المراء فإن نفعه قليل ويهيج العداوة بين الإخوان، روا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنته، ذروا المراء فإن المراء يورث الشك ويحبط العمل، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فكفى بك إثمًا ألا تزال مماريًا، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في وسطها ورباضها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد، ولكن رضي بالتحريش وهو المراء في الدين، ذروا المراء فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنين وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم»، قالوا: يا رسول الله وما السواد الأعظم؟ قال: «**من كان على ما أنا عليه وأصحابي**». ثم قال: «**إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء**»، قالوا يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس ولا يمارون في دين الله**» [(٢)].

ولا شك أن هذا النهي قد أثر تأثيرًا كبيرًا في الصحابة فلم يسألوا ولم يجادلوا ولم يماروا في شيء من أمور الدين، وكما يقرر المقريزي في الخطط: «**أن من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ** عن معنى شيء مما وصف الرب

---

(١) المراء: تمارى القوم: تجادلوا، وتمارى في الشيء شك فيه وفي القرآن الكريم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم :٥٥] انظر المعجم الوسيط (٢/٨٦٦).

(٢) نقلاً عن كتاب ذم الكلام لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي. انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٨٢- ٢٨٣).

سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات ولم يفرِّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام، والعز والعظمة، وساقوا الكلام سوقًا واحدًا، وهكذا أثبتوا رضي الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك، مع نفي مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله ولا عرف أحد منهم شيئًا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة» [(١)].

بهذه النظرة الشاملة عبر المقريزي عن عقيدة الصحابة رضوان الله عليهم وأنهم كفاهم ما نزل به القرآن وما حدثهم به النبي ﷺ وأن الجدل في الذات والصفات وسائر الأمور العقدية حدث بعد عهدهم رضوان الله عليهم.

والخلاصة التي ننتهي إليها هي أن الأمور العقدية من أصول الدين بينها الله في القرآن أحسن بيان، فقد بيَّن دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب وصفاته وبيَّن دلائل نبوة الأنبياء، وبين المعاد وقدرة الله عليه، فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحة ومعلومة تتضمن بيان العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق، وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك، وليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق، فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول ﷺ وإمكان المعاد أو وقوعه ، وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع ، وكل ما خالفوا فيه الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضًا [(٢)].

---

(١) خطط المقريزي (٤/١٨٠- ١٨١).

(٢) انظر: النبوات لابن تيمية (ص ١٤٥).

ويذكر ابن القيم أن الصحابة قد تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين، وأكمل الأمة إيمانًا، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدو الشيء منهم إبطالاً ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرًا واحدًا وأجروها على سنن واحدة ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين وأقروا بعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين [(١)].

وبالجملة فقد فارق النبي ﷺ الحياة الدنيا والصحابة مجتمعون متحدون على رأي واحد في أصول الدين وعقائده، وبعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حدثت اختلافات اجتهادية من الصحابة، سنتحدث عنها إن شاء الله تعالى.

المسألة السابعة: النظر العقدي في عهد الخلفاء الراشدين:

ذكرنا ما قرره العلماء أن المسلمين عند وفاة رسول الله ﷺ كانوا على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه غير من أظهر وفاقًا وأضمر نفاقًا، كما يقول البغدادي في أصول الدين [(٢)].

وقد تكلم أكثر من واحد حول الاختلافات التي حدثت بعد عهد النبي ﷺ كالأشعري في مقالات الإسلاميين والبغدادي في الفرق بين الفرق والشهرستاني في الملل والنحل.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠) دار الحديث.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٤).

أول خلاف وقع منهم: اختلافهم في موت النبي ﷺ، فزعم قوم منهم أنه لم يمت وإنما أراد الله رفعه إليه كما رفع عيسى ابن مريم إليه، وقد زال هذا الخلاف، وأقر الجميع بموته حين تلا عليهم أبو بكر الصديق قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر :٣٠]، وقال لهم: **«من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»** (١).

وهنا نلاحظ أن الخلاف قد ارتفع ببركة صدق ويقين الصديق رضي الله عنه، ولكن فكرة الرفع تلك إذا كانت قد حُلت بتلاوة الصديق لآيات من القرآن الكريم ، فقد كان لها دلالتها العقلية الخطيرة فيما بعد ، لأن تفسير الموت بمعنى الرفع من قبيل التأويل الذي اتخذته بعض الفرق منهجًا أساسيًا في تخريج مسائل العقيدة، من الممكن أن يكون لهذا القول الأثر في القول بالرجعة عند بعض فرق الشيعة (٢).

وقد جهر ابن سبأ بالقول بالرجعة فيما بعد، فقد زعم أن النبي ﷺ سيرجع مرة أخرى، وجهر بهذه الفكرة في حياة سيدنا محمد ﷺ، ثم بعد وفاة علي رضوان الله عليه صرح بأن عليًا لم يمت وإنما صعد إلى السماء وسيرجع مرة أخرى (٣).

وعلينا أن نفرق تفريقًا جذريًا بين قول عمر رضوان الله عليه بأن محمدًا لم يمت، وبين رجوعه عن تلك الكلمة لما ذكره الصديق بالآيات القرآنية التي تتحدث عن وفاة الرسول ﷺ... إذ إن عمر من فرط حبه وتعلقه بالنبي ﷺ أصيب بصدمة عاطفية، جعلته يقول مقالته، بينما ابن سبأ قد أثار بالكلمة فتنة وعمد إلى إفساد عقيدة المسلمين، ولأنه يهودي كان يقصد الإثارة والفتنة ويعمد إلى بث بذور الشقاق والخلاف بين المسلمين الأوائل (٤).

(١) الفرق بين الفرق (ص ١٤- ١٥).

(٢) العقيدة الإسلامية (ص ١١٦).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

(٤) انظر: في فتنة عبد الله بن سبأ الاختراق اليهودي (ص٥٠- ٥٤).

الخلاف الثاني: في دفنه ﷺ، فأراد أهل مكة رده إلى مكة لأنها مولده ومبعثه وقبلته وموضع نسله وبها قبر جده إسماعيل عليه السلام، وأراد أهل المدينة دفنه بها لأنها دار هجرته ودار أنصاره، وقال آخرون بنقله إلى أرض القدس ودفنه ببيت المقدس عند قبر جده إبراهيم الخليل وزال هذا الخلاف بأن روى لهم أبو بكر الصديق عن النبي ﷺ أن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون، فدفنوه في حجرته بالمدينة (١).

ونلاحظ كما لاحظنا من قبل أن كلام الصديق قُبل بلا مراجعة ولا جدال ولا تحزب لرأي ضد آخر.

الخلاف الثالث: في الإمامة: فقد قال الأنصار للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، وأذعنت الأنصار لسعد بن عبادة الخزرجي، وقالت قريش إن الإمامة لا تكون إلا في قريش ، ثم أذعنت الأنصار لقريش لما روي لهم قول النبي ﷺ: «**الأئمة من قريش**» وكان الذي أعلمهم بذلك الصديق رضوان الله عليه، وقد نزل الصحابة على رأيه، وبايعوه واجتمعوا على إمامته واتفقوا على خلافته (٢).

ولكن يبقى هذا الخلاف هو الخلاف الذي سينبني عليه الكثير من الاختلافات لأنه كما يقول الشهرستاني: «**أعظم خلاف بين الأمة على الإمامة إذ ما سُل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُل على الإمامة في كل زمان** (٣)».

ويقول البغدادي: «**وهذا الخلاف باق إلى اليوم - أي زمانه-**» (٤).

ولعل هذا الخلاف لخطورته وأهميته، هو ما حدا بالإمام الأشعري أن يجعله أول اختلاف بين المسلمين بعد نبيهم ﷺ، ويقرر أنه لم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر رضوان الله عليه، وأيام عمر إلى أيام عثمان بن عفان

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

(٢) انظر مقالات الإسلاميين (ص ٢) والفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٥).

(٣) انظر الملل والنحل (ص ١٥).

(٤) انظر: الفرق بين الفرق (ص ١٥).

رضوان الله عليه [١]، وهو يقصد بالأولية هنا أهميته وخطورته، بالرغم من أنه حدث قبله وبعده بعض الاختلافات.

الخلاف الرابع : في شأن فدك [٢]: وفي توريث التركات عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم نفذ في ذلك قضاء أبي بكر بروايته عن النبي ﷺ: «**أن الأنبياء لا يورثون**» ونسجل أن أبا بكر حين منع فاطمة من الميراث منع زوجات النبي ﷺ ومنهن السيدة عائشة، ولذلك رضيت السيدة فاطمة بعد أن سمعت رواية الصديق عن أبيها [٣]، ولكن استُغل هذا الحادث من قبل بعض الفرق ونفخوا في أواره وخاضوا في أبي بكر الصديق بسببه.

الخلاف الخامس: اختلفوا في مانعي الزكاة: فقال قوم لا نقاتلهم قتال الكفرة، وقال قوم بل نقاتلهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: «**والله لو منعوني عقالاً مما أعطوا رسول الله لقاتلتهم عليه**» ومضى بنفسه إلى قتالهم ووافقه جماعة الصحابة بأسرهم وقد أدى اجتهاد عمر رضي الله عنه في أيام خلافته إلى رد السبايا والأموال إليهم وإطلاق المحبوسين منهم والإفراج عن أسراهم [٤].

وكان مرد الخلاف بين أبي بكر وعمر، أن عمر بن الخطاب قال: كيف نقاتلهم، وقد قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم**» فقال أبو بكر: أليس قد قال: «**إلا بحقها**»، ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو منعوني عقالاً مما أدوه إلى النبي لقاتلتهم عليه.

---

(١) مقالات الإسلاميين (ص٣).

(٢) فدَك: قرية بخيبر وقيل بناحية الحجاز فيها عين ونخل أفاءها الله على نبيه ﷺ فكانت في يده حياته فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى قال علي: إن النبي ﷺ قد جعلها في حياته لفاطمة رضي الله عنها وولدها، وقضى أبو بكر بأنها لا تورث، ولما مات أبو بكر سلمها عمر للعباس وعلي يليانها ولا يملكانها.

(٣) دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ١٨٦).

(٤) الملل والنحل والفرق بين الفرق (ص١٧).

ويذهب الشيخ مصطفى عبد الرازق: إلى أن الخلاف في قتال مانعي الزكاة أو أهل الردة كما يسمونهم كان أصلاً لما حدث بعد ذلك من الخلاف في الإيمان والإسلام وتضمنهما للعمل أو عدم تضمنهما له [١].

الخلاف السادس: في تنصيص أبي بكر على عمر بالخلافة وقت الوفاة، فمن الناس من قال: وليت علينا فظًّا غليظًا، وارتفع الخلاف بقول أبي بكر لو سألني ربي لقلت: وليت عليهم خيرهم لهم، وقد وقع في زمانه اختلافات كثيرة في مسائل ميراث الجد والإخوة والكلالة وفي عقل الأصابع وديات الأسنان وحدود بعض الجرائم التي لم يرد فيها نص هذا وإنما كانت أهم أمورهم: الاشتغال بقتال الروم، وغزو العجم ففتح الله تعالى الفتوح على المسلمين وكثرت السبايا والغنائم، وكانوا كلهم يصدرون عن رأي عمر رضي الله عنه، فانتشرت الدعوة وظهرت الكلمة ودانت العرب ولانت العجم[٢].

ولكن بدأت بعض الآراء تظهر وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لها بالمرصاد، فقد ظهر رجل يقال له: «**صبيغ بن عسل**» يسأل عن المتشابه ويتكلم فيما لا يعنيه مما قد يحدث فتنًا بين العامة فطلبه عمر وقال له: من أنت؟ قال عبد الله صبيغ، وقال عمر: أنا عبد الله عمر، فأخذ يضربه بعراجين النخل حتى دمي رأسه فقال صبيغ: حسبك يا أمير المؤمنين فقد ذهب الذي كنت أجده في رأسي، ثم نفاه إلى البصرة حتى صلح حاله [٣].

وسيدنا عمر رضي الله عنه مثال للخليفة الناصح الذي لا يترك أمرًا يمر دون أن يقومه وأن يعيده إلى نصابه.

وبالجملة فقد كان الصحابة على كلمة واحدة في أبواب العدل والتوحيد

---

(١) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (ص ٢٨٤).
(٢) الملل والنحل (ص ٢٠- ٢٦).
(٣) انظر التبصير في الدين للإسفراييني (ص ٢) بتصرف يسير.

والوعد والوعيد وسائر أصول الدين، وكانوا على هذه الجملة في أيام أبي بكر وعمر وست سنين من خلافة عثمان (١).

الخلاف السابع: في أمر الشورى واختلاف الآراء فيها، واختلفوا كلهم على بيعة عثمان رضي الله عنه وانتظم الأمر واستمرت الدعوة في زمانه وكثرت الفتوح وامتلأ بيت المال وعاشر الخلق على أحسن خلق وعاملهم بأبسط يد غير أن أقاربه من بني أميَّة قد ركبوا نهابر (مهالك) فركبته، وجاروا فجير عليه ووقعت في زمانه اختلافات كثيرة وأخذوا عليه أحداثًا كلها محال على بني أميَّة (٢)، والأشياء التي وقعت من مخالفيه نقموها منه حتى أقدم لأجلها ظالموه على قتله (٣).

وقد فند أبو بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم كل ما لحق بسيدنا عثمان من مخالفيه، بالحجة والبيان الشافي وبرأ عثمان مما نسب إليه. وملخص ما قاله عن عثمان: «**فلم يأت عثمان منكرًا لا في أول الأمر ولا في آخره ولا جاء الصحابة بمنكر، وكل ما سمعت من خبر باطل إياك أن تلتفت إليه**» (٤).

وينفذ الشيخ محمد عبده ببصيرة إلى فترتين: فترة الرسول ﷺ والخليفتين من بعده، وبين الزمن الأخير من عهد سيدنا عثمان.

يقول في رسالة التوحيد: «**مضى زمن النبي ﷺ** وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات الشبهة وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء وجمع كلمة الأولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم، ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم وما كان من اختلاف قليل رد إليهما، وقضي الأمر فيه بحكمهما وبعد استشارة من جاورهما من أهل

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٧).
(٢) الملل والنحل (ص ٢٠- ٢٦).
(٣) الفرق بين الفرق (ص١٧).
(٤) انظر العواصم من القواصم (ص ٦٠) وانظر (ص ٦١- ٨٠).

البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الاستشارة، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه، يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما يوهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يُفْهم من ظاهر اللفظ... كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله فهوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها وبقي القرآن قائمًا على صراطه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر :٩]، وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون» (١).

بالفعل قد تغيرت النفوس، فقد حدث الخلاف بين الصحابة في أمر الخلافة بعد موت رسول الله ﷺ، ولكن رُفع الخلاف وبايع الصحابة أبا بكر بعد سماعهم لحديث ورد عن رسول الله ﷺ يرفع النزاع.

أما في عهد سيدنا عثمان فإن السيوف قد سُلت وإن الأحزاب قد تحزبت. لماذا؟ لأنه قد كثر الداخلون في الإسلام وليس لهم من الدين إلا اسمه، ومنهم من دخل وهدفهم الأول والأخير الكيد للإسلام وبدأ هؤلاء الحاقدون يثيرون الاضطرابات في وجه عثمان رضي الله عنه وقامت الفتنة ولم تسكن بعد (٢).

الخلاف الثامن: في زمان أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه بعد الاتفاق عليه وعقد البيعة له.

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده (ص ٢٤، ٢٥) دار المعارف الطبعة الثالثة.

(٢) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ١٩١- ١٩٢).

فأوله خروج طلحة والزبير إلى مكة ثم حمل عائشة إلى البصرة ثم نصب القتال معه ويعرف ذلك بحرب الجمل والحق أنهما رجعا وتابا إذ ذكرا أمرًا فتذكراه فأما الزبير فقتله «ابن جرموز» بقوس وقت الانصراف وهو أي قاتله في النار لقول النبي ﷺ: «**بشر قاتل ابن صفية بالنار**»، وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم وقت الإعراض فخر ميتًا، وأما عائشة رضي الله عنها فكانت محمولة على ما فعلت ثم تابت بعد ذلك ورجعت والخلاف بينه وبين معاوية وحرب صفين ومخالفة الخوارج وحمله على التحكيم ومغادرة عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري وبقاء الخلاف إلى وقت وفاته مشهور، وكذلك الخلاف بينه وبين الشراة المارقين بالنهروان عقدًا وقولاً ونصب القتال معهم فعلاً ظاهرًا معروف [١].

وقد حدثت الخلافات العقدية في عهد سيدنا عليّ رضي الله عنه خاصة من الخوارج الذين كونوا فرقة لم تكتف بمخالفة المسلمين فكريًّا وعقديًّا، ولكنهم تعدوا الفكر إلى حمل السلاح، فكفروا مخالفيهم وأقاموا في كثير منهم القتل وقد انبرى لهم الصحابة رضوان الله عليهم بالرد وتفنيد ما أثاروه من عقائد وجادلوهم بالحجة والبرهان، فمنهم من استجاب ومنهم من استمر في غيه ولم يرجع إلى الحق وكان دينهم تكفير علي وعثمان وأصحاب الجمل ومعاوية وأصحابه والحكمين ومن رضي بالتحكيم وتكفير كل ذي ذنب ومعصية [٢]، وهكذا وضعت البذور الأولى لاختلاف الفرق فيما بعد.

المسألة الثامنة: بداية التفرق العقدي:

انقضى عصر الخلفاء الراشدين وظهرت رؤوس مسائل عقدية، وبدأت الفرق الدينية والسياسية تظهر وتتبلور، غير أن أهم مسألة شغلت المسلمين بعد الإمامة هي:

(١) الملل والنحل للشهرستاني (ص ٢٥، ٢٦).

(٢) الفرق بين الفرق (ص ٨١) تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

مسألة القدر:

وهي المسألة التي كانت أساسًا للتفرق والاختلاف بعد عهد الرسول ﷺ لقد كان هناك من يسأل عن القدر ويحتج به في عهد الخلفاء الراشدين.

ففي عهد عمر رضي الله عنه أُتي بسارق فقال له عمر: لم سرقت؟ فقال: قضى الله عليَّ فأمر عمر به فقطعت يده وضُرب أسواطًا فقيل له في ذلك فقال: القطع للسرقة والجلد للكذب على الله. فنحن نرى أن الرجل زعم أن القدر يبرر الجريمة، فما كان من سيدنا عمر إلا أن اعتبر ذلك من الكذب على الله.

وفي عهد سيدنا عليّ قام شيخ إليه فقال: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئًا، ولا هبطنا واديًا إلا بقضاء الله وقدره. فقال الشيخ: فعند الله أحتسب عناي، ما أرى لي من الأجر شيئا، فقال: مه أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في حالاتكم مكرهين ولا مضطرين، فقال الشيخ: فكيف والقضاء والقدر ساقنا؟ فقال: ويحك لعلك ظننت قضاءً لازمًا وقدرًا حتمًا لو كان ذلك كذلك حتمًا لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهي ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن تلك مقالة عُبَّاد الأوثان وجنود الشيطان وشهود الزور أهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها إن الله أمر تخييرًا ونهى تحذيرًا وكلف تيسيرًا ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص :٢٧].

فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال هو الأمر من الله والحكم ثم تلا قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣][١].

(١) انظر تاريخ الجدل للشيخ أبي زهرة (١٠٧- ١٠٨).

ويذهب كثير من أهل العلم إلى أن مسألة القدر والخوض فيها إنما جاء من خارج الجزيرة العربية أعني من البلاد التي فتحها المسلمون واختلطوا فيها بأرباب الديانات الأخرى... ويذكرون أن أول من قالَ بالقدر: «**معبد الجهني**»، وقد ورد التصريح بذلك في رواية لمسلم عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر قال: «**كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني**» (١).

ومعنى أول من قال بالقدر أي ينفي القدر وقد أخذ القول بنفي القدر عن معبد الجهني «**غيلان الدمشقي**» وكان قبطيًّا قدريًّا من بلغاء الكتاب قال عنه الساجي: كان قدريًّا داعية دعا عليه عمر بن عبد العزيز فقتل وصُلب وكان غير ثقة ولا مأمون وكان مالك ينهى عن مجالسته قلت (أي ابن حجر) وكان الأوزاعي هو الذي ناظره وأفتى بقتله وقال رجاء بن حيوة قتله أفضل من قتل ألفين من الروم» (٢).

والذي يهمنا أن نرصده هو أن أول من قال بنفي القدر معبد الجهني وأنه أخذ الفكرة من رجل يقال له «**سوسن النصراني**» الذي لم يجرؤ أن يذيع الفكرة في المجتمع الإسلامي فأخذها معبد الجهني وتولى نشرها، ثم بعد ذلك نادى بها غيلان الدمشقي، الذي كان نصرانيًّا وجاهر بمذهبه وتأثر به بعض المسلمين.

وكان نفي القدر ومرتكب الكبيرة والتكفير بالمعصية والاختلاف حول الصفات وحول كلام الله ، القرآن الكريم هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ وحول الجبر والاختيار وهل الإنسان مسيرٌ أو مخير؟ من المسائل التي شغلت المسلمين كثيرًا وتسبب عنها التفرق والجدال.

المسألة التاسعة: حديث افتراق الأمة وما دار حوله:

روى الإمام أحمد وأبو داود من رواية معاوية رضي الله عنه قال: قام فينا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/١٥٠- ١٥٦).
(٢) لسان الميزان لابن حجر (٤/٤٢٢).

رسول الله ﷺ فقال: «**إلا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة**»[١].

وروى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تفترق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»[٢].

موقف العلماء من هذه الأحاديث:

أولًا: رفض هذه الأحاديث جملة وتفصيلاً:

ممن ذهب إلى هذا الإمام ابن حزم في الفصل.. يقول: «**هذان حديثان لا يصحان أصلًا من طريق الإسناد وما كان هكذا فليس بحجة عند من يقول بخبر الواحد فكيف بمن لا يقول به**»[٣].

ثانيًا: قبول الأحاديث ورفض التنصيص على الناجية والهلكى بعض العلماء قَبِلَ الأحاديث ولكنه رفض الزيادة التي تنص على الهلكى والناجية، ويمثل هذا الفريق «**ابن الوزير**» في كتابه «**العواصم والقواصم**» حيث يقول: إياك أن تغتر بزيادة كلهم في النار إلا واحدة فإنها زيادة فاسدة ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة، والذين يرفضون هذه التكملة لهم سند من الرواية التي تذكر أن اثنتين وسبعين فرقة في الجنة وواحدة في النار فإن هذا التذييل هو نقيض التذييل المشهور الذي يذكر أن الفرق كلها في النار إلا واحدة،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه باب: شرح السنة من كتاب السنة الحديث رقم (٤٥٩٧) (٥/٥، ٦) عن معاوية وأحمد في المسند عن أنس بن مالك (٣/١٢٠) وله شاهد عند الترمذي في كتاب الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه باب: افتراق الأمم الحديث (٣٩٩١)، والترمذي كتاب الإيمان وقال حديث حسن صحيح. انظر مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ١٣، ١٤).

(٣) انظر تاريخ الفرق الإسلامية (ص ١٩).

ويمكن أن يقال إن الروايتين تعارضتا فتساقطتا، وبقى صدر الحديث مقبولاً.

٣- قبول الحديث مع رفض مفهوم العدد:

هناك من قَبِلَ هذه الأحاديث ولكنهم رفضوا مفهوم العدد الذي يعني في نصوص متعددة التكثير، وعندهم أن النبي ﷺ أخبر أن اليهود ستفترق فرقًا كثيرة وكذلك النصارى، وأن أمته ستفترق أكثر منهما، دون حصر لعدد معين لأي من الطوائف الثلاث، واستعمل لفظ السبعين للدلالة على الفروق في هذه الكثرة بين الأمم الثلاث (١).

إلا أننا نلاحظ:

أولًا: أن هذه الفرق على كثرتها كما أخبر النبي ﷺ ليست خارجة عن الإسلام وإنما هي من أمة الإسلام، بدليل قول النبي ﷺ وستفترق «أمتي»، فلم يكفرهم النبي ﷺ، وإنما أبقاهم في عموم الأمة، أمة التوحيد ونحن نبدي تلك الملاحظات لنقف أمام نزعة التكفير عند البعض لأناس من أمة الإسلام فاختلافهم لا يخرجهم عن الإسلام.

ثانيًا: يتبين لنا خطأ من صدر كتابه بهذه الأحاديث ثم فصَّل ونزَّل العدد على فرق بعينها كما فعل الشهرستاني في الملل والنحل والبغدادي في الفرق بين الفرق، لأن الذين فعلوا ذلك تعسفوا في تحديد الفرق ليناسب العدد في الأحاديث، ونحن نقول لهم: وماذا لو نشأت فرق جديدة بأسماء جديدة على نفس الشروط التي وضعتموها في تعداد الفرق؟ ولذلك يبقى مفهوم العدد الوارد في الأحاديث يراد به التكثير لا العدد بذاته حتى نخرج من دائرة التحديد المؤدية إلى التناقض، ومخالفة العدد من جهة، وواقع نشأة الفرق من جهة أخرى، والتعصب من جهة ثالثة ؛ لأن كل فرقة تدعي أنها الفرقة الناجية دون سواها.

(١) انظر: بتصرف تاريخ الفرق الإسلامية (ص ١٩- ٢٦) للدكتور محمود مزروعة.

ثالثًا: أن هناك بعض الفرق خرجت أصلاً عن الإسلام، ومن ثمَّ فالحق يقتضي أن لا ندخل هذه الفرق في عدد الفرق الإسلامية، وإنما نقول الفرق المنتسبة إلى الإسلام، مثل غلاة الشيعة والبابية والبهائية والإسماعيلية وغيرهم.

«**رابعًا**: يجب أن نفسح المجال لرواية أخرى وردت ضمن حديث الافتراق تفيد أن كل هذه الفرق في الجنة إلا واحدة، يقول الدكتور عبد الحليم محمود: «**ولكن مما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدور أن الشعراني في ميزانه**» روى من حديث ابن النجار وصححه الحاكم بلفظ غريب وهو «**ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة**» وفي رواية عن الديلمي «**الهالك منها واحدة**».

وفي هامش الميزان عن أنس عن النبي ﷺ: «**تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة**» وما في هامش الميزان هذا مذكور في تخريج أحاديث مسند الفردوس «**للحافظ ابن حجر**» ولفظه: «**تفترق على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة وهي**: «**الزنادقة**» أسنده عن أنس.

وقال صاحب كشف الخفاء: «**ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية ولو مآلًا . . . فتأمل**» [(١)].

* * *

---

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام (١/١٠٨- ١٠٩)، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م الدار المصرية. وانظر: للأهمية كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني (١/١٤٩ - ١٥٠) مكتبة الغزالي. دمشق.

الفصل الأول

وجود الله بين المثبتين والمنكرين

ويشتمل على :

المبحث الأول : هل أنكر العرب وجود الله .

المبحث الثاني : حديث القرآن عن وجود الله .

المبحث الثالث : استدلال المتكلمين على وجود الله .

المبحث الرابع : استدلال الفلاسفة على وجود الله .

المبحث الخامس : شبه المنكرين للألوهية والرد عليهم .

المبحث الأول

هل أنكر العرب وجود الله ؟

إن وجود الله حقيقة لا تحتاج إلى برهان فهي فطرة فطر الله الناس عليها ، ولذلك فإن القرآن الكريم لم يكن من أهدافه إثبات وجود الله ولا من أهداف الرسول ﷺ، لأن العرب الذين ظهر فيهم النبي ﷺ جميعهم على الاعتقاد في وجود الله ، يقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، والآيات كثيرة في القرآن الكريم التي تبين لجوء المشركين إلى الله لكشف ما بهم من ضر .

يقول ابن رشد : «**إن العرب كلها تعترف بوجود الباري سبحانه وتعالى**» [(١)].

والشهرستاني في الملل والنحل يقول : «**وشبهات العرب كانت مقصورة على شبهتين :**

إحداهما: إنكار البعث .

ثانيهما: بعثة الرسول [(٢)].

ويقول في نص آخر في كتابه نهاية الإقدام : «**وأما تعطيل الصانع العالم القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد ولا أعرف عليها صاحب مقالة إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا : العالم كان فى الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على غير استقامة واصطكت اتفاقاً فحصل عنها العالم الذى نراه ، ودارت الأكوار وكرت الأدوار**

(١) منهاج الأدلة (ص ١٢٨- ١٢٩) مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل (١٠٥/٤).

وحدثت المركبات ، ولست أرى فى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع بل هو يعترف بالصانع ولكنه يجعل سبب وجود العالم على البخت والاتفاق احترازاً من التعليل» (١).

والشهرستاني حين يذهب إلى أنه لا يعرف أحداً عطل العالم عن صانعه إلا الدهرية ، فهؤلاء ليسوا من العرب ، لأن الكلام الذي نقله الشهرستانى عنهم لا يتناسب مع العقلية العربية بدليل قول الشهرستانى: «**لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفى الشريك)(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»** (٢).

فإذا كان الأمر كذلك فعلام يحمل قوله تعالى على لسان الدهريين: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ **[الجاثية: ٢٤]**.

إن الآية تعبر عن العرب الذين أنكروا البعث بعد الموت ، ولم ينكروا وجود الله ، أما الذين أنكروا وجود الله فهم الدهريون من الفلاسفة الذين أنكروا وجود الله ، فى غير البيئة العربية على اعتبار أن القرآن لم ينزل للعرب خاصة وإنما للناس كافة ، ومن ثم فهو يعبر عن عقائد العرب وغير العرب .

يقول ابن كثير فى تفسيره للآية السابقة: «**هذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد وتقوله الفلاسفة اللاإلهيون منهم، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع»** (٣).

والألوسي يذكر في تفسيره لهذه الآية أن الذين ورد ذكرهم فيها «**معترفون بوجود الله سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيراً»** (٤).

وهذا التفريق من ابن كثير والألوسي يوضح لنا أن العرب لم تنكر وجود

---

(١) نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٣- ١٢٤).

(٢) المصدر السابق (١٢٣/ ١٢٤) وانظر موافقة صريح المعقول للمنقول (٧٣/٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٠-١٥١).

(٤) روح المعاني للألوسي (١٣٥/٢٥).

الله حتى الدهريين منهم لأننا لم نعثر على نصوص فى خطب العرب وأشعارهم ينكرون فيها الله عز وجل، فكل ما ورد عنهم شعرًا أو خطبًا فيه ذكر للدهر وتقلباته وغدره وفي الوقت نفسه نجد في أشعارهم ذكراً لله جل وعلا على اعتبار أنه الفاعل المتصرف المدبر للأمور كلها ، مع اعتقادهم فى الشركاء له سبحانه .

ولنأخذ مثالاً يوضح لنا أن العرب لم تنكر وجود الله وإن نسبت بعض الحوادث للدهر .

يقول زهير بن أبى سلمى :

بدا لى أن الناس تفنى نفوسهم ... وأموالهم ولا أرى الدهر فانياً

وفى نفس القصيدة يقول :

بدا لى أن الله حق فزادنى ... إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا

ألم تر أن الله أهلك تبعًا ... وأهلك لقمان بن عاد وعاديا

وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى ... وفرعون أردى جنده والنجاشيا [(١)]

في قصيدة واحدة ينسب البقاء إلى الدهر ولكنه فى الوقت نفسة يرد الأمور كلها لله .

ويبدو أن جمع العرب بين الاعتراف بوجود الله وبين نسبتهم الحوادث للدهر جرى مجرى العادة لا مجرى العقيدة فهم من ناحية العقيدة يعترفون بوجود الله ويشركون معه المظاهر الأخرى من أصنام وكواكب وغيرها ، ومن ناحية العادة يذكرون الدهر وينسبون إليه بعض الأمور ، بل ويسبونه أحياناً كما يفعل البعض الآن فى مثل قولهم **«الدنيا لا تترك أحداً فى حاله»** أو **«هكذا الدنيا»** حين يخبر البعض بموت شاب أو فتاة أو ذهاب مال وخلافه ، مع اعتقاد القائل تمام الاعتقاد بالله الواحد وأن الدنيا لا تفعل ولا تنفع ولا تضر .

ومع هذا التقرير لا ينبغى أن يفهم كلامنا على أنه ليس هناك من ينكر

(١) شرح زهير بن أبي سُلمى (ص ٢٠٩).

وجود الله .. كلا فهناك بعض الشراذم فى كل عصر ومصر ، فسدت فطرهم ، وأنكروا وجود الله ، ولكن نؤكد أنه ليس هناك من ينكر وجود الله فى البيئة العربية حين نزول الوحى ، بنصوص القرآن الكريم ، وما ورد عن الأئمة فى هذا الشأن ، وسوف نفرد كلاماً مستقلاً نناقش فيه الماديين القدامى والمعاصرين الذين ينكرون وجود الله ويثيرون الشبهات ، فى وجه المؤمنين الموحدين .

* * *

المبحث الثانى

حديث القرآن الكريم عن وجود الله

كما يعبر بحق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود «**أنه يمكن أن يؤخذ من القرآن أدلة على وجود الله وإن لم يكن ذلك هدفاً من الأهداف القرآنية وإذا نسقنا الأدلة ونظمناها فإنما يرجع ذلك إلى استنتاج من نصوص هدفها الصحيح بيان عظمة الله وتدبيره وهيمنته على كل ما فى العالم من صغيرة وكبيرة ، وبيان عناية الله ورعايته وإحكامه المحكم وإبداعه المتقن لكل ما يسرى فى العالم من قوانين ونواميس ، هذا فى الحقيقة هو هدف القرآن من النصوص التى يتحدثون عنها بمناسبة إثبات وجود الله**» (١).

وسوف نعرض طرفاً من تلك النصوص التي استقى منها العلماء الأدلة على وجود الله فيما يعرف بتوحيد الربوبية أى أن خالق الأشياء كلها هو الله عز وجل .

يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة :٤-٧].

هذه الآيات تقرر أن السموات والأرض وما فيهما مخلوق وأن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله تعالى وأنه جل شأنه مدبر هذا الوجود كله فهو الذي يوجد ويعدم ويعطي ويمنع ويعز ويذل ، لأنه هو عالم الغيب والشهادة وهو

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٢).

العزيز الذي لا يغلب الرحيم بخلقه الذي أحسن كل شيء خلقه وأبدعه (١).

ويقول سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة :٥٧-٦١].

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :١٦٤].

ويقول سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور :٣٥-٣٦].

ويقول سبحانه: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم :١٠].

والقرآن الكريم يؤكد الدلالة من الخلق على الخالق لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن أن يوجد نفسه، ولم يثبت أن أحدًا ادعى أنه خلق الكائنات أو خلق نفسه.

إن من ينظر إلى ما ترشد إليه هذه الآيات وغيرها كثير ، نظرًا سليمًا بعيدًا عن التعصب والهوى ومن يبحث وينقب في عجائب الصنعة المشاهدة وبديع إتقانها ليدرك إدراكًا قويًا ويؤمن ويصدق بأن لهذا العالم ربًّا خالقًا.

وقد وردت في القرآن الكريم أدلة ساقها الله على لسان بعض أنبيائه ورسله استنبط العلماء منها الأدلة على وجود الله، مثل الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) في العقيدة الإسلامية (ص١٤) لأستاذنا الدكتور عوض الله حجازي. مطبوعات جامعة الإمارات.

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء :٢٣-٢٩].

في هذه الآيات استدل موسى عليه السلام على وجوده سبحانه بدلالة الصنعة على الصانع والأثر على المؤثر ولكن فرعون لما قامت عليه الحجة، لجأ إلى منطق القوة والتهديد والوعيد ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء :٢٩].

وسوف نكتفي ببعض هذه الأدلة، ونرجئ القسم الأكبر منها عند عرضنا لشبهات الماديين والملحدين المنكرين لوجود الله من القدامى والمحدثين.

وقد سار السلف رضوان الله عليهم على طريقة القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، فها هو الإمام أبو حنيفة جاء إليه رجل فقال: ما الدليل على الصانع؟ قال: «**أعجب دليل النطفة التي في الرحم والجنين في البطن يخلقه الله في ظلمة البطن وظلمة الرحم قالبًا منطبعًا ليطبع الجنين فيه فيلزم أن يكون الولد إما ذكرًا وإما أنثى، ومرة توأمين وطورًا ثلاثة، وتريد أن تلد فلا تلد، وتريد الذكر فتكون الأنثى، وتريد الأنثى فيكون الذكر على خلاف اختيار الأبوين، فعرفنا قطعًا أنه قدرة قادر عليم حكيم وأن الفلاسفة ينادون من مكان بعيد**»[1].

والإمام الشافعي يستدل على وجود الله «**بورق الفرصاد (التوت) طبعها ولونها سواء وريحها، فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبريسم ويأكلها النحل فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر، فانظر كيف تغيرت الحالات عليها فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر يحول عليها الأحوال ويغير التارات**»[2].

وهذا الاستدلال هو استدلال العلماء بالله الذين يأخذون من عجيب خلق الله سبحانه وتعالى الدليل على وجوده ووحدانيته.

---

(١) مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص١٢).

(٢) المصدر السابق (ص ١٢).

المبحث الثالث

استدلال المتكلمين على وجود الله:

إذا كانت الأدلة على وجود الله واضحة في الكون والآفاق والأنفس فإن علماء الكلام دافعوا قديمًا عن العقيدة الإسلامية، وصاغوا أدلة يدافعون بها عن وجود الله في وجه الملحدين.

يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم: «**لقد أرغمت التحديات متكلمي الإسلام على توجيه أنظارهم إلى المباحث التي يدور فيها الاحتكاك بين الإسلام وتلك العقائد، لقد كان لهذا العلم في هذا المجال هدف جليل تمثل في المحافظة على عقائد المسلمين وكان عليه أن يواجه أعتى أعداء الإسلام وأخطرهم وأقواهم سلاحًا وأشدهم تمكنًا وأكثرهم تحالفًا وأوسعهم تنوعًا**» [(١)].

وقد صاغ المتكلمون أدلتهم على وجود الله، وأشهر ما يستدلون به:

دليل الحوادث:

يقول الإمام الأشعري: من قصد إلى برية لم يجد فيها قصرًا مبنيًا فانتظر أن يتحول الطين من حالة الآجر وينتضد بعضه على بعض بغير صانع ولا بان كان جاهلاً وإذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة ثم لحمًا ودمًا وعظمًا أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع النطفة ونقلها من حال إلى حال [(٢)].

والإمام الباقلاني من المتكلمين يستدل بدليل الحدوث وتغير الموجودات من حال إلى حال، ويعزو هذا الاستدلال إلى الخليل إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه ذلك بأنه لما رآها متغيرة من حال إلى حال علم أنها محدثة

(١) انظر: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام (ص ٣١٠) طبعة مجمع البحوث الإسلامية.
(٢) اللمع في الرد على أهل البدع للأشعري (ص ١٤٢) تحقيق د/ حمودة غرابة.

متطورة مخلوقة لله سبحانه وتعالى وأن الله هو الذي خلقها فقال عند ذلك: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام :٧٩][١].

ويعلق الباقلاني على قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: قبلنا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان. قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**» [٢].

يعلق الباقلاني على هذا الحديث بقوله: «**قد بيَّن نبينا ﷺ** بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة» [٣].

ويلاحظ أن الباقلاني يرجع إلى نصوص الكتاب والسنة في الاعتماد على حدوث العالم وأن محدثه هو الله عز وجل.

يقول الشهرستاني: «**وقد سلك المتكلمون طريقين في إثبات الصانع تعالى وهو الاستدلال بالحوادث بإمكان الممكنات على مرجح لأحد طرفي الإمكان ويدعي كل واحد في جهة الاستدلال ضرورة وبديهة**» [٤].

ودليل الحدوث الذي يستدل به المتكلمون صياغته كالآتي:

العالم ينقسم إلى جواهر وأعراض ولا يخرج عنهما.

والأعراض حادثة والدليل على حدوثها أننا نشاهدها موجودة بعد أن لم تكن كحركة الجسم بعد سكونه فهذه الحركة ثابتة بالمشاهدة، وسكونه

---

(١) انظر: الإنصاف للباقلاني (ص ٣٠-٣١).
(٢) صحيح البخاري، باب: وكان عرشه على الماء (٩/١٥٠) طبعة الشعب.
(٣) الإنصاف للباقلاني (ص ٣٠- ٣١).
(٤) نهاية الإقدام (ص ١٢٤- ١٢٥).

حادث ؛ لأنه بمجيء الحركة قد انعدم ولو كان قديمًا لاستحال عليه العدم ؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه.

والجواهر كذلك حادثة لأنها لا تخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث أما أنها لا تخلو عن الحوادث فلأنها لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان فالجواهر لا تخلو عن الحوادث [(١)].

إذا ثبت هذا فكل حادث لا بد له من محدث، وهذا بالبداهة ، ولا يصح أن يكون المحدث للعالم نفسه إذ أنه يصبح حينئذ متقدمًا على نفسه ومتأخرًا عنها مخلوقًا وهذا باطل؛ لأن كون الشيء الواحد متقدمًا على نفسه ومتأخرًا عنها في وقت واحد باطل بالبداهة.

هذا المحدث للعالم الموجد له لا بد أن يكون مغايرًا له في صفاته فلا يكون حادثًا بل يجب أن يكون قديمًا.

هذا المحدِث للعالم هو الله تعالى [(٢)].

والاستدلال بحدوث العالم على وجود الله تعالى، اتفق المتكلمون عليه من معتزلة وأشاعرة وماتريدية [(٣)]، على خلافات يسيرة في صياغة هذا الدليل فيما بينهم.

* * *

(١) انظر: الوحدانية لأستاذنا الدكتور بركات دويدار (ص ٣٤٩- ٣٥٠).

(٢) انظر: في العقيدة الإسلامية (ص١٥- ١٦) لأستاذنا عوض الله حجازي.

(٣) الوحدانية (٣٥٠) وانظر: المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية (ص٣٥- ٣٦) لأستاذنا الدكتور يحيى هاشم.

المبحث الرابع

استدلال الفلاسفة على وجود الله «دليل الإمكان»

يستدل الفلاسفة بدليل الإمكان على وجود الله، ومفاد هذا الدليل أن الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ؛ لأنها مركبة من الممكن ، والمركب من الشيء الممكن يكون ممكنًا، وكل ممكن يحتاج إلى سبب يعطيه الوجود، ويترتب على هذا أن جملة الممكنات محتاجة بتمامها إلى سبب يوجدها ويعطيها الوجود.

هذا السبب إما أن يكون عينها أو جزء منها أو غيرها.

أولًا: لا يجوز أن يكون السبب عينها؛ لأنه يلزم عليه تقدم الشيء على نفسه وهذا باطل.

ثانيًا: لا يجوز أن يكون السبب جزء من الممكنات ؛ لأنه يترتب عليه أن يكون الشيء علة لنفسه ولما سبق، وهذا باطل.

ثالثًا: إما أن يكون سبب الممكنات غيرها، وهذا الغير:

١- إما أن يكون هو المستحيل وهذا باطل؛ لأن المستحيل معدوم وغير موجود وفاقد الوجود لا يعطي الوجود.

ب- إما أن يكون الذي سبب الموجودات هو واجب الوجود الذي أعطى الممكنات وجودها، وهذا الواجب الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى هو الله سبحانه [١].

يقول ابن سينا: «كل موجود إذا التفت إليه من حيث ذاته من غير التفات إلى غيره إما أن يكون بحيث يجب له الوجود في نفسه أو لا يكون.

(١) انظر: في صياغة دليل الفلاسفة في العقيدة الإسلامية (ص١٩- ٢٠).

فإن وجب فهو الحق بذاته الواجب الوجود من ذاته وهو القيوم.

والثاني: أي الموجود الذي لا يجب له الوجود من ذاته وهو الممكن. فكل موجود:

إما واجب الوجود بذاته، وهذا مستحيل عليه العدم.

وإما ممكن الوجود بذاته، وهذا يحتاج إلى غيره لأن الممكن لا وجود له من ذاته.

فما حقه في نفسه الإمكان ليس يصير موجودًا من ذاته فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه من حيث هو ممكن فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته فوجود كل ممكن هو من غيره» [(١)].

بين المتكلمين والفلاسفة:

ينطلق المتكلمون من دليل الحدوث إلى أن العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدِث، والمحدث للعالم هو الله عز وجل.

أما الفلاسفة فعندهم: **«أن الموجودات كلها ما عدا الله سبحانه ممكنة ولإمكانها تحتاج إلى غيرها في وجودها، وغير الممكن هو الواجب بذاته لأن الواجب بغيره ممكن من حيث ذاته واحتياجها ثابت سواء أكانت قديمة أم حادثة لأنه لا مانع عندهم أن يكون الشيء قديمًا بالزمان أي لا أول لوجوده، حادثًا بالذات أي يحتاج إلى غيره في وجوده»** [(٢)].

نقد ابن تيمية لدليلي المتكلمين والفلاسفة:

تناول ابن تيمية ممثل المدرسة السلفية دليل المتكلمين والفلاسفة على وجود الله عز وجل بالنقد مبينًا أن طريقة القرآن الكريم هي الأسلم والأقوم

---

(١) انظر: الإشارات لابن سينا (ص١٩- ٢٠) وانظر: الوحدانية (ص٣٥٨).

(٢) الوحدانية (ص٣٥٨).

وأن الناس لا يحتاجون إلى هذه المقدمات ليصلوا إلى وجود الله، يقول:

«إن إثبات الصانع في القرآن بنفس آياته التي يستلزم العلم بها العلم به كاستلزام العلم بالشعاع: العلم بالشمس من غير احتياج إلى قياس كلي يقال فيه وكل محدَث فلا بد له من محدِث أو كل ممكن فلا بد له من محدِث أو كل ممكن فلا بد له من مرجح أو كل حركة فلا بد لها من علة غائية أو فاعلية ومن غير احتياج إلى أن يقال سبب الافتقار إلى الصانع هل هو الحدوث فقط أو الإمكان؟» (١).

ثم يقول: **«إن الإنسان يعلم فقر نفسه وحاجتها إلى خالقه من غير أن يخطر بباله أنها ممكنة، والممكن الذي يقبل الوجود والعدم أو أنها محدثة والمحدث مسبوق بالعدم بل قد يشك في قدمها أو يعتقده وهو يعلم فقرها وحاجتها إلى بارئها، والقلب بفطرته يعلم ذلك وإن لم يخطر بقلبه وصف الإمكان والحدوث.**

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور :٣٥].

قال جبير بن مطعم:

«لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع وهو استفهام إنكار يقول أوجدوا من غير مبدع؟ فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكوِّن، ويعلمون أنهم لم يكونوا نفوسهم، وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه» (٢).

* * *

(١) انظر: مجموع الفتاوي توحيد الربوبية (٣/٩).

(٢) توحيد الربوبية (٢/١٠- ١١).

المبحث الخامس

شبه منكري الألوهية والرد عليهم

تمهيد:

في هذا المبحث نعرض شبه المنكرين للألوهية، وخطتنا في هذا المبحث أن نعرض الشبهة متتبعين من قال بها من الماديين القدامى والدهريين والماديين المحدثين، جامعين العناصر التي يشترك فيها القدامى مع المعاصرين، ثم تفنيد تلك الشبهة أولاً من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة مستأنسين بفهوم علماء الإسلام واستنباطهم من القرآن والسنة في الرد على الماديين إن في القديم أو الحديث، ثم بعد ذلك نعمد إلى إبراز موقف العلم الحديث من الشبهة التي عرضها الماديون، ولكن لنثبت بطلان بعض الآراء العلمية بما يناقضها في نفس المجال وبنفس المنهج العلمي وقد طبقنا ذلك المنهج العلمي في نقد القائلين بقدم المادة، وفي نقد القول بالصدفة في خلق الكون، وأخيرًا في نقد نظرية التطور.

وهذا النقد لمنكري الألوهية في شبههم الثلاث من العلم الحديث لا يعد تدعيمًا لوجهة النظر الإسلامية بقدر ما هو اعتراف بالحقائق التي جاء بها القرآن الكريم [(١)].

وقد قسمت شبه المنكرين إلى ثلاث شبه:

الشبهة الأولى: ادعاء أزلية الكون وصدوره عن المادة بدون حاجة إلى خالق.

---

(١) انظر: المنهاج القرآني (ص ٧٧، ٧٨) لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي الناشر المكتبة القومية الحديثة بطنطا.

الشبهة الثانية: القائلين بالصدفة. أي أن الكون خلق بالصدفة وليس من الله.

الشبهة الثالثة: القائلين بالتطور.

وهذه الشبه الثلاث، تختلف في أشكالها وتتحد في مضمونها الذي ينتهي إلى إنكار الخالق سبحانه وتعالى، وكان يمكن أن نكتفي بعرض الشبهة الأولى والرد عليها، ولكن أردنا أن نحاصر الماديين في كل جزئية من الجزئيات التي زعموا أنها تؤيد إنكار وجود الله.

ولقد حاولنا في الرد على شبه المنكرين لوجود الله أن نسهم في الدفاع عن العقيدة الإسلامية آملين أن نضع لبنة في صرح بناء علم كلام إسلامي جديد يستخدم مصطلحات العصر الحديث مرتكزًا في الوقت ذاته على الكتاب والسنة كما فعل أسلافنا عليهم رضوان الله.

* * *

عرض شبه القائلين بأزلية المادة والرد عليهم

الشبهة الأولى

أزلية الكون وقيامه بنفسه بدون خالق

إن ادعاء قيام الكون بنفسه ووجوده منذ الأزل، شبهة قال بها الماديون قديمًا وحديثًا، فالقدامى زعموا أن العالم قديم وأنه نشأ من عناصر مادية على اختلاف فيما بينهم في تحديد هذه العناصر بين الماء والهواء والنار والتراب أو هذه العناصر مجتمعة كما ذهب «أنبادوقليس» من الفلاسفة اليونان [(١)]. وانتقلت هذه الآراء إلى من عرفوا بالدهرية في المجتمع الإسلامي [(٢)]، الذين ذهبوا إلى القول: «**بقدم العالم وأزليته وأنكروا العلة الفاعلية، وكانوا لا يقرون إلا بما أوجده العيان أو ما يجري مجرى العيان**» [(٣)].

واستمرت هذه النزعة المادية التي تقول بقدم العالم واكتفائه بنفسه على نحو آلي بدون حاجته إلى إله، إلى العصر الحديث الذي دعمت التجارب العلمية فيه النزعة المادية [(٤)]، وتساءل الطبيعيون لم لا تمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله؟

ولماذا نبحث للكون عن علة مفارقة له؟ وعبر أحد الماديين عن ذلك بقوله: «**إن كل شيء يفسر بالمادة والحركة وأنهما أزليتان أبديتان والعالم مدبر بقوانينهما وأن الكون ليس مدبرًا من إله**» [(٥)].

---

(١) انظر الفلسفة اليونانية: يوسف كرم (ص ١٢- ١٩، ٣٥ - ٤٣)، وقصة الفلسفة لديورانت (٧ ، ٨، ٢٤).

(٢) انظر: تاريخ الفلاسفة في الإسلام: دي بور (ص ١٥ ، ١٦).

(٣) انظر: الحيوان للجاحظ (٤/٨٩، ٩٠)، (٧/١٢، ١٣) وإخوان الصفا (٢/٤٥٥)، وانظر: مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص ١٠٦، ١٠٧)، المنقذ من الضلال للإمام الغزالي (ص٩٤).

(٤) انظر: مدخل إلى الفلسفة الحديثة (ص٣٨، ٣٩، ٢٧٠، ٢٧١).

(٥) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة (ص١٩١، ١٩٢)، ومدخل إلى الفلسفة (١٦٤، ١٦٥)، وانظر: الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة (ص ٦٢)، وانظر: العلم في منظوره الجديد (ص ٢٣- ٥٧).

وقامت فلسفات مادية كالماركسية التي تبنت قول الماديين الأوائل في نظرتهم إلى الكون وظهر هذا في تعليق «لينين» على عبارة «هيرقليطس» هذا العالم الذي هو سواء بالنسبة للجميع لم يخلقه إله من الآلهة، ولا واحد من البشر، ولكنه كان دائمًا كما هو اليوم وسيستمر دائمًا نارًا بمعايير لاندلاعها، ومعايير لخمودها [١].

يقول «لينين» تعليقًا على هذه العبارة عرض ممتاز لمبادئ المادية الديالكتيكية [٢]، ووصل الأمر بالماديين إلى أن أنزلوا المادة مكان الله وذهبوا إلى أن أهم الصفات التي يوصف بها الله وهي القدم والخلق وجدناها تضاف عادة للمادة فالله أمره نافذ وكذلك القوانين الآلية الميكانيكية [٣].

ويمكن وضع تلك الشبه في نقاط محددة هي:

أولًا: العالم قديم وأوجد نفسه بدون علة خارجية.

ثانيًا: لا وجود للإله.

ثالثًا: اعتبار أن المادة هي الله.

وسنفند تلك الشبه:

أولًا: بما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثانيًا: بما استنبطه علماء الإسلام من القرآن والسنة.

ثالثًا: بما انتهى إليه العلم الحديث في شأن قدم المادة.

رابعًا: مقارنة بين عبادة المادة، وعبادة الله.

---

(١) فلاسفة الإغريق (ص ٢٨).

(٢) الدفاتر الفلسفية للينين نقلاً عن النظرية المادية في المعرفة (ص ٦٥) روجيه جارودي وانظر: الفلسفة الماركسية اللينينية. ترجمة لويس اسكاروس، دار الثقافة ١٩٨١م.

(٣) انظر: أسس الفلسفة (ص ١٥٢) للدكتور توفيق الطويل، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٥م.

أولاً: لقد نزل القرآن الكريم بخطاب شامل للبشرية كلها فكان يواجه المشرك كما كان يواجه الجاحد المنكر للألوهية وكان يواجه اليهود والنصارى.

وإذا كان وجود الله فطرة فُطر الناس عليها، فإن هناك بعض التراكمات على تلك الفطرة تحجب الإنسان عن معرفة الله رب العالمين، وكذلك فإن الأدلة القرآنية راعت في المقام الأول أن تزيل هذه التراكمات واستثارت ملكات الإنسان ووجهته نحو ربه عز وجل، ومع إثارة الفطرة اهتمت الأدلة القرآنية بلفت نظر الإنسان إلى الكون ونظامه ودقته وإبداعه، ومن هنا كانت أدلة القرآن الكريم هي جماع الأدلة وهي منبع الأدلة التي تمخضت عنها أقوال الحكماء في هذا الباب (١).

أ- دلالة الاختراع:

وهذه الأدلة تعني إثبات أن الله عز وجل خلق الكون كله لا على مثال سابق، وتهدف هذه الأدلة إلى إثبات حدوث العالم والرد على القائلين بقدمه وأزليته وهذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر هي قوله تعالى:

١- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة :٢١] .

٢- ﴿إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَـٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِى تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة :١٦٤].

٣- ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقًا فَفَتَقۡنَـٰهُمَا

(١) الفلسفة القرآنية (ص ٩٩) للعقاد، دار الإسلام، القاهرة، وانظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص٧٥، ٧٦).

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء :٣٠].

٤- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت :١٩-٢٠].

٥- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة :٤] .

٦- ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت :٩-١١].

٧- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور :٣٥-٣٦].

٨- ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة :٥٧].

هذه الآيات تقرر أن الكون لم يكن ثم كان بإرادة الله عز وجل وهذا الخلق تم بإرادته ومشيئته في الوقت الذي حدده، يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص :٦٨].

وذلك لأن الله تعالى فعال لما يريد، وهذا الخلق والاختراع تم بالأمر «كن» يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل :٤٠].

هذه الآيات مجتمعة تقرر أن الحياة لم تكن ثم كانت بأمر الله في الوقت الذي أراده ولفظ خلق إشارة إلى التكوين (١)، ويقرر المفسرون في هذه

(١) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١١١).

الآيات أن السموات والأرض كانتا معدومتين فأوجدهما الله، والممكنات باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة واتصافها بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود وهو الله تعالى [١].

والقرآن الكريم يؤكد الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن أيضًا أن يكون هو علة صياغة نفسه [٢]، ولذلك ركز الله رب العالمين على خلقه للأشياء وإيجادها من العدم، ولم يثبت أن أحدًا ادعى أنه أوجدها، وهذه الآيات التي تحدثت عن خلق السموات والأرض من لا شيء كانت هي الملهمة لما صاغه علماء الإسلام من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى.

يقول الأشعري: «**إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن للخلق صانعًا صنعه ومدبرًا دبره؟ قيل له: الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام كان نطفة ثم علقة ثم لحمًا ودمًا وعظمًا، وعلمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، وإذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة ثم لحمًا ثم دمًا وعظمًا أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة :٥٨-٥٩] فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون**» [٣].

ويرد على القائلين بقدم النطفة بناء على افتراض سؤالهم «**فإن قالوا فما يؤمنكم أن تكون النطفة لم تزل قديمة؟ قيل لهم: لو كان ذلك ما ادعيتم لم يجز أن يلحقها الاعتمال، والتأثير ولا الانقلاب والتغيير لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغيره**» [٤].

فالأشعري قد استخدم دليل الحدوث والعناية للدلالة على أن كل ما سوى الله حادث وليس بقديم.

---

(١) انظر: الزمخشري (٢/٥٧٠)، وأبو السعود (٣/٥١٤، ٥١٥)، والألوسي (١٧/٣٤، ٣٥).

(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٥).

(٣) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع (ص ١٨).

(٤) السابق (ص ١٩).

وسنجد أن المدرسة الأشعرية تستخدم دليل الحدوث في الاستدلال على عدم قدم العالم، والإمام **«الباقلاني»** استدل أيضًا بدليل الحدوث وتغير الموجودات من حال إلى حال وعزا هذا الاستدلال إلى الخليل إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه ذلك بأنه لما رآها متغيرة من حال إلى حال علم أنها محدثة متطورة مخلوقة لله تعالى وأن الله هو الذي خلقها فقال عند ذلك:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩][١].

ويستطرد الباقلاني فيعلق على قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاء قوم من بني تميم قال: **«البشرى يا بني تميم»**، قالوا: بشرتنا فأعطنا. فدخل ناس من أهل اليمن فقال: **«اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم»**، قالوا: قبلنا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: **«كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء»**[٢].

يعلق الباقلاني على هذا الحديث بقوله: «قد بيّن نبينا ﷺ بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة»[٣].

وقد أطبق علماء الإسلام على الاستدلال بحدوث المخلوقات من لا شيء على وجود الخالق سبحانه وتعالى[٤]. وابن رشد في كتابه **«مناهج الأدلة»** يبين أن الأدلة على وجود الله تعالى التي دعا إليها الشرع واعتمدها صحابة رسول الله ﷺ تنحصر في جنسين:

---

(١) انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص ٣٠، ٣١) بتصرف، طبعة الخانجي ١٩٦٣م.

(٢) صحيح البخاري، باب: وكان عرشه على الماء (٩/١٥٠) طبعة الشعب.

(٣) الإنصاف (ص ٣٠، ٣١) بتصرف.

(٤) انظر: أصول الدين للبغدادي (ص ٧٠) وانظر: الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٢٩- ٤١).

الأول: دليل العناية أي عناية الله بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله.

الثاني: دليل الاختراع: أي اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل ومن الآيات التي تتحدث عن الاختراع خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة [١].

والآيات التي أوردناها من هذا النوع فهي تقرر أن الكون مخلوق وله بداية ونهاية وأن مادته ليست أزلية وأن الله بدأه من لا شيء ، وفي هذه الآيات من الأسرار ما لا يحصى لأن العقول لا تستطيع أن تدركها، إذ إن كيفية الخلق والإعادة من الأمور التي اختص بها الحق سبحانه [٢]، وقد أفرد لهذه الطريقة ابن تيمية صفحات كثيرة من مؤلفاته، يذكر أن الدلالة بالخلق على وجود الله وتوحيده طريقة الأنبياء عليهم السلام ، وقد استدل بهذه الدلائل الخليل، وموسى عليهما السلام [٣]، إذ إن العلم بافتقار المحدَث أبين في العقل وأبْدَه له.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ **[الطور :٣٥]**.

يقول جبير بن مطعم: لما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها أحسست بفؤادي قد انصدع وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ **[الواقعة :٥٨-٥٩]**.

إذ كان كل من القسمين: وهو كونهم خلقوا من غير خالق.

وكونهم خلقوا أنفسهم معلوم الانتفاء بالضرورة. فإن الإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يحدث من غير محدث وأنه لم يحدث نفسه، فلما كان العلم

---

(١) منهاج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد (ص ١٥٠، ١٥١)، تحقيق الدكتور محمود قاسم الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو ١٩٦٤م.

(٢) انظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ٩١) وصراع المذهب والعقيدة (ص ٢١٥، ٢١٦).

(٣) انظر: بتصرف دقائق التفسير لابن تيمية (٥/٢٠٢- ٢٠٤) الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

بأنه لا بد له من محدِث وأن محدِثه ليس إياه علمًا ضروريًا ثبت بالضرورة أن له محدِثًا غيره وكل ما يقدر فيه أنه مخلوق فهو كذلك كالسماوات والأرض وغيرهما لأن الخلق يتضمن الحدوث والتقدير ففيه معنى الإبداع والتقدير [١].

وقد استدل العلماء بهذه الآيات في مناقشتهم للقائلين بقدم العالم من الدهريين ببطلان الترجيح بلا مرجح، والدور، والتسلسل [٢].

وإذا ثبت بالقرآن الكريم والسنة أن العالم حادث وأن الذي خلقه هو الله ، فإن العلم الحديث يثبت هو الآخر أن الكون له بداية وله نهاية وذلك عن طريق علم الفلك وعلم الفيزياء.

يقول أحد العلماء: **«إن أهم اكتشاف علمي في القرن العشرين أن الكون أصبح قابلًا للبحث باستخدام علمي الفيزياء والفلك»** [٣].

أولاً: دلالة علماء الفيزياء على حدوث العالم:

إن النظرة التي استند إليها الماديون في القول بأزلية المادة وإن الكون قائم بنفسه بدون خالق له أصبحت بعد الاكتشافات العلمية المثيرة تسمى بالنظرة القديمة.

أما النظرة الجديدة فإنها تثبت أن المادة ليست أزلية وأن الكون له بداية وعلة أولى نشأ عنها. يقول الفيزيائي «**أدموند ويتبكر** Edmund whittaker **(ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي ، فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من**

---

(١) انظر: بتصرف موافقة صريح المعقول للمنقول لابن تيمية (١١٣/٣، ١١٤).

(٢) انظر: المسائل الخمسون في أصول الدين للرازي (ص ٢٥- ٢٧)، وانظر: الإنصاف (ص ١٧، ٣٠- ٣٣)، وانظر: موافقة صريح المعقول للمنقول (١١٧/٣، ١١٨).

(٣) العلم في منظوره الجديد (ص ٥٩).

اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقًا من العدم أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم» [١].

هذا هو العلم الذي يقرر أن الكون حادث ووراءه إرادة أخرجته من العدم وإن اكتشاف بعض القوانين العلمية الحديثة لينسف القول بأزلية المادة نسفًا، لإثبات حدوثها وصدورها عن إله حكيم.

من هذه القوانين ما يعرف بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية ومفاد هذا القانون أن المادة إذا ضغطت سخنت وارتفعت درجة تعادلها الحراري وكلما ازداد عدد الانكماشات العظيمة للكون ازدادت حرارته ودرجة تعادله الحراري، وبما أن درجة حرارة الكون ودرجة تعادله الحراري محدودتان في الوقت الراهن فلا بد من أنه كانت له بداية، وإن مظاهر الكون المتمثلة في الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة كلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبطان بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذا حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، فالقانون يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليًا ؛ لأن الحرارة لا توجد بنفسها، ولو كان أزليًا لكان باردًا وكان قد استهلك طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فيه [٢].

ثم إن هناك مواد مشعة في الكون وهي تفقد أجزاء منها في كل فترة زمنية بانتظام وتتحول إلى مواد أخرى غير مشعة ولو أن الكون أزليًا لكانت هذه المواد المشعة قد تحولت بكاملها [٣].

ويؤكد هذا الدكتور «**بول كلارنس أيرسولد**» أستاذ الطبيعة الحيوية ومدير

---

(١) العلم في منظوره الجديد (ص ٦٤).

(٢) انظر: العلم في منظوره الجديد (ص ٦٣)، وانظر الله يتجلى في عصر العلم (ص ٦)، القرآن يتحدى (ص ٣٩٥، ٣٩٦)، وانظر: الله جل جلاله (ص ١٦).

(٣) توحيد الخالق (٢٦/٣، ٢٧) عبد المجيد الزنداني، دار المجتمع ١٩٨٧م.

قسم النظائر والطاقة الذرية يقول: «**إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ نشأة ذاتية من العدم المطلق بل إن لهما بداية ولا بد لكل بداية من مبتدئ كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وإن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية كما أن وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان إنها بداية مقدسة وتوجيه مقدس وتدبير إلهي محكم**» (١). كل هذه الاكتشافات تثبت أن الكون ليس أزليًا وأنه لم يخلق نفسه بنفسه.

ثانيًا: دلالة علم الفلك على حدوث الكون:

إذا كان علم الفيزياء الحديثة قد أثبت عن طريق القوانين العلمية أن الكون له بداية فإن علم الفلك يؤكد ذلك.

يقرر الفلكي «**روبرت جاسترو** Robert Jasterow(**أن سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان بدأت فجأة وبعنف في لحظة معينة من الزمن وفي ومضة ضوء وطاقة**» (٢)، ويقرر علم الفلك أيضًا أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم وأن كل مجاميع النجوم والأجرام السماوية تتباعد بسرعة مدهشة بعضها عن بعض ولا يمكن تفسير هذه الحالة إلا بالتسليم بأن الكون له بداية وكانت الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض ثم بدأت الحركة والحرارة، والتسليم بهذه القوانين العلمية، ثم إنكار أن يكون لهذا الكون إله كمن يدعي أن الأهرامات قامت بنفسها مع تسليمه بأن الأهرامات بناها المصريون منذ أربعة آلاف سنة (٣).

إن كل هذه الدلائل تثبت قيام العالم بالله سبحانه وتعالى وأن الكون نشأ من عدم.

---

(١) الأدلة الطبيعية على وجود الله ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص ٣٨).

(٢) العلم في منظوره الجديد (ص ٦٤) وانظر: دراسة الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ١٦٣).

(٣) انظر: الإسلام يتحدى بتصرف (ص ٥٠، ٥١)، وانظر: توحيد الخالق (ص ٢٦- ٢٩).

كيف تنشأ الحياة من المادة التي لا حياة فيها؟

إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام :٩٥].

هذا إعلان من الله أنه أخرج الحي من الميت، يجب التسليم به ؛ لأنه لم يدع أحد إلى الآن ذلك.

وإن ادعاء خروج الحياة من اللاحياة بفعل الطبيعة أو بالتولد الذاتي قول يتناقض مع العقل، ومع العلم في آن واحد . أما تناقضه مع العلم، فلاستحالة كون المادة مصدر الحياة لخلوها من الحياة، وما كان خاليًا من شيء قوة وفعلاً لا يمكنه مطلقًا أن يكون مصدرًا له، والمادة خالية من الحياة بالقوة ؛ لأنها لو قدرت أن تبرز الحياة ذات يوم لقدرت أن تبرزها قبل ذلك؛ لأن طبائع الأشياء لا تتغير وإذا قدرت أن تبرزها قبل ذلك اليوم فإنها قادرة أن تبرزها الآن، ولا يمكن أن توجد في وقت آخر، وذلك مقرر في مبادئ علوم الطبيعة، أما خلو المادة من الحياة بالفعل فشيء ثابت وظاهر لأننا لم نر مادة جامدة أنبتت حياة [(١)].

أما تناقض القول بأن الحياة تخرج من اللاحياة مع العلم فيرجع إلى أن **«جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين، ومع ذلك فإن من يُنكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزئيات يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة الموجودة في الخلايا الحية؛ لأن كل خلية من هذه الخلايا قد بلغت درجة من التعقيد يصعب على العلماء فهمها ، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق،**

---

(١) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي (ص ١٠١، ١٠٢)، وانظر: موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين للشيخ مصطفى صبري (٣٠٨/١- ٣١٠).

ولشخص أن يقبل أن الحياة نشأت بدون إله ولكنه حين يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق الأشياء ودبرها» (١)، ونحن قطعًا نسلم بداية بأن الكون مخلوق لله وأن الحياة تخرج من اللاحياة بإرادة الله، ولكن إذا كان الذين يدينون بالعلم وقوانينه هم الذين يردون على الملحدين بنفس منهجهم وطريقتهم، فإن المسلم عليه أن يستثمر تلك النقطة وأن يستأنس بردود هؤلاء العلماء بعد أن بنى يقينه على العلم الصادر من الله عز وجل (٢).

أما النقطة الثانية من الشبهة الأولى: وهي ادعاء عدم وجود الله:

فإن الله عز وجل يكذب الذين يزعمون ذلك؛ لأنه قد فطرهم على معرفته ووجوده ووحدانيته يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف :١٧٢-١٧٤]. وهذه الآيات تبين أن الله قد فطر الخلق على معرفته وتوحيده، ولذلك يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم :٣٠]، والمفسرون أكّدوا على أن هذه الآيات تبين أن الله فطر الناس على الإقرار بوجوده ووحدانيته، ولهذا كان أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري ؛ لأن اضطرار النفوس إلى الله أعظم من اضطرارهم إلى ما لا تتعلق به حاجتهم، ألا ترى أن الناس يعرفون من أحوال ما تتعلق به منافعهم ومضارهم كولاة أمورهم وأصدقائهم وأعدائهم ما لا يعلمونه

---

(١) انظر:بتصرف مقال الخلايا الحية تؤدي وظيفتها للدكتور «**رسل تشارلز أرنست**» ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص ٧٧).

(٢) انظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص٩٣، ٩٤).

من أحوال من لا يرجونه ولا يخافونه ولذلك فإن احتياج المخلوق للخالق أبين وأوضح ؛ لأنه الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار [١].

أما إنكار وجود الله فإنه لا يكون إلا بعد أن تغير الفطرة بفعل الإنس والجن، وتفسد مدارك السمع والبصر والعقل وهناك آيات كثيرة تثبت عدم الانتفاع بنعم الله من الناحية الإيمانية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠] ، وهناك من الآيات ما يبين ذلك [٢].

ولكن هذا الفساد يزول عن الإنسان ويرجع إلى ربه حين يصيبه البأساء والضراء ففي ذلك الوقت تنقشع الغشاوة من على الفطرة ويعود الإنسان إلى ربه وقد صرح القرآن الكريم بذلك، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس :٢٢] .

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء :٦٧][٣].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل :٥٢-٥٣].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٤٢٢، ٤٢٣)، والرازي (١٥/٤٦- ٤٨)، وموافقة صريح المعقول للمنقول (٣/١٣٦).

(٢) انظر: سورة البقرة آية: (٨٨)، والأنفال آية: (٢٣)، والنساء آية: (١٥٥)، ومحمد آية: (١٦)، والفرقان: (٤٤)،وغيرها من الآيات الكثيرة. انظر: الإيمان لابن تيمية (٢٢- ٢٤) تحقيق الألباني ١٤٩٠هـ.

(٣) انظر: يونس: (١٢).

وهذه الآيات تبين أن الإنسان ساعة الضر وساعة الشدة لا يجد ملجأ ولا مفرًا إلا الله وللإنسان أن يتأمل التعبير القرآني في اللجوء إلى الله والاستعانة به والاستغاثة بقوته ورحمته، هذا التعبير: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل :٥٣] فإن الآية تظهر أن الإنسان يجأر أي يرفع صوته بالدعاء والتضرع والاستغاثة، وهذا يعني أن الدافع الفطري والإحساس بأن الله هو المنقذ عميق وقوي ومسيطر على النفس البشرية ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء (١).

ولذلك فإن «**الشهرستاني**» يعتبر أن أوضح الأدلة على وجود الله هو دليل الفطرة السليمة شهدت بضرورة فطرتها وبديهية فكرتها على صانع حكيم عالم قدير والناس إن غفلوا عن الفطرة في حال السراء فلا شك أنهم يلوذون به في حال الضراء ويستشهد بالآيات السابق ذكرها.

والرسل إنما هم مبعوثون لتذكية الفطرة وتطهيرها عن تسويل الشيطان، فإنهم الباقون على أصل الفطرة وما كان له عليهم من سلطان ولذلك قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى :٩-١٠] ومن رحل إلى الله قربت مسافته حيث رجع إلى نفسه أوفى رجوع فعرف احتياجه إليه في تكوينه وبقائه وتقلبه (٢)، وابن تيمية في درء تعارض العقل مع النقل يولي كلام الشهرستاني اهتمامًا كبيرًا في الاستدلال على وجود الله (٣).

ولا يقولن قائل إننا نناقش قومًا كفروا بالله ورسله وكتبه فكيف نستدل لهم بآيات من القرآن الكريم؟

والحق أن القرآن حين نبه على الدلائل التي توصل إلى معرفته وخاصة دليل الفطرة لم يختص قومًا دون قوم ولم يخاطب نفسًا دون نفس وإنما خاطب الناس كلهم ؛ لأنه عالم بنفوسهم وتفكيرهم.

---

(١) انظر: المنهاج القرآني (ص ٨٨، ٨٩).
(٢) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٤- ١٢٦).
(٣) موافقة صريح المعقول للمنقول لابن تيمية (١٢٩/٣، ١٣٠).

يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك :١٤] ، وإذا لم يقتنع الإنسان أيًّا كان زمانه ومكانه وتفكيره بكلام الله فهل يتصور أن يقتنع بغير كلام الله؟ الحق أن الله عز وجل بعد أن أودع القرآن الكريم الدلائل على وجوده ووحدانيته قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية :٦] ، أي: إذا لم يقتنع الملحد والكافر أمريكيًّا أو أوربيًّا أو روسيًّا بآيات الله ودلائله فلن يؤمن بشيء آخر. ثم إن القرآن كان يخاطب أهل مكة وهو يعلم أنهم على الكفر [١].

ولكن لأن أدلة القرآن الكريم تنفذ إلى النفس البشرية وتغيرها، كان خطاب الله لهؤلاء، وما على الذي يعرض كتاب الله إلا أن يتحلى باللغة المناسبة والفطرة التى نأخذ منها دليلاً على وجود الله من هذه الأدلة التي يتساوى جميع الناس فيها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتفكيرهم وفقرهم وغناهم، يلمح لهذا الدكتور «**فاروق الدسوقي**» في كتابه «**القضاء والقدر**» فيذكر أن ملحدي العصر يعمدون إلى إنكار الغيبيات لفقدهم الدليل المادي على وجودها فهم لا يؤمنون إلا بالمادة المحسوسة والمناهج التجريبية كوسائل للبحث، والقرآن الكريم يقدم لهؤلاء وسيلة تناسب ما يؤمنون به من الناحية الحسية، لا ليثبت لهم وجود الله ولكن ليأخذ منهم اعترافًا صريحًا أن الله موجود في أعماق نفوسهم، وإذا ثبت أن الإيمان موجود في أعماقهم فقد أثبت ما ينتهي إليه هذا الإيمان، والمنهج الذي يقدمه القرآن لكشف حقيقة المنكرين له هو «**المنهج النفسي التجريبي حيث يجري عليهم تجربة نفسية تتلخص في أن نأخذ بعض الملاحدة في قارب صغير في بحر لجي حيث يوشك القارب أن يغرق بهم بشرط أن تكون التجربة دون علم هؤلاء الملاحدة، ثم علينا بعد ذلك أن نسجل مشاهداتنا وملاحظاتنا عن سلوكهم حيال هذا الخطر على حياتهم، وسنرى هل**

---

(١) انظر: العقيدة في الله (ص ٥٧، ٥٨) الدكتور عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح الكويت سنة ١٩٨٤م.

سيتوجهون إلى الأرض أم السماء؟ وهل سيدعون البحر أم رب البحر وخالقه؟ وعلينا أن نسألهم بعد ذلك من أين لهم هذا الإيمان دون مناظرة أو مجادلة؟ إن القرآن الكريم يخبرنا أنهم في تلك اللحظة لا يؤمنون فقط بوجود الله ولكن بأنه الواحد الأحد القادر، ونحن نتحدى ملاحدة هذا العصر أن يقيموا هذه التجربة بشرط أن يتحلوا بالأمانة والحياد والرغبة في الوصول إلى الحق والحقيقة» (١).

وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء :٦٧] .

وأخيرًا نأتي إلى النقطة الثالثة من الشبهة الأولى وهي:

صفات الله ثم المادة:

الحق الذي ظهر للباحث أن الماديين حين كفروا بالله آمنوا بالمادة وفعلوا مع المادة مثلما يفعل المؤمنون مع الله.

فإذا كان المؤمن يؤمن بقوة غيبية لا ترى، هذه القوة هي الله، فإن الماديين يؤمنون أيضًا بقوة غيبية لا ترى وهم مضطرون إلى ذلك فما القانون العلمي والقوة والحركة والزمن والأزلي والأبدي إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة ومع ذلك لا يجرؤ أحد من الماديين أن ينكرها وإلا لكان علمه ساذجًا ولاتّهمه زملاؤه بالسطحية.

يقول الأستاذ وحيد الدين خان: «**إن أي عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو دون الاعتماد على ألفاظ مثل القوة: Force الطاقة: Energy الطبيعة: Nature وقانون الطبيعة: low of nature . وما إلى ذلك، ولكن هذا العالم لا يدري ما القوة والطاقة والطبيعة وقانونها، فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة لكي يبين عللًا غير معلومة وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ تمامًا كرجل الدين لا يستطيع تفسير صفات الإله وكلاهما يؤمن بدوره بعلل غير معلومة**» (٢). وإذا

(١) انظر: بتصرف القضاء والقدر في الإسلام (١/٩٩- ١٠١) دار الدعوة الإسكندرية.

(٢) الإسلام يتحدى (ص ٤٢)، وانظر: الله يتجلى في عصر العلم (ص ١٨).

تتبعنا الماديين في كثير جدًا من المواقف نجد أنهم لا يختلفون عن المؤمنين في مواقفهم فإن عندهم إيمانًا بل وعندهم إلهام داخلي.

يقول الدكتور كونانت: «**أعظم الفروض التمهيدية الكبرى التي جاء بها تاريخ العلم نشأت نتيجة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانًا بأنها (مسة من عبقرية) أو (خاطرة ملهمة) أو (ومضة من خيال باهر) وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة لتمحيص النتائج كلها أو تحليل منطقي لها أو محاولة منظمة لصياغتها أدَّت إلى ما انتهى إليه صاحبها**» [١].

ونستطيع أن نقول بدون تجاوز للحقيقة: إن المؤمن كما يعبد الله، ويتوجه إليه فإن المادي يعبد المادة ويتوجه إليها، لا فرق بين القدامى والمحدثين، فإن «**الشهرستاني**» وصف المادة بأنها معبود الدهريين [٢]. وكما يعتقد المؤمن في الرسل فإن المادي يعتقد في الفلاسفة الماديين الذين صاغوا مذهبه، وكما أن المؤمن له كتاب مقدس فإن المادي له أيضًا كتب مقدسة تتمثل في المؤلفات المادية ، وكما أن المسلم يصلي ويعبد الله فإن الماديين يفعلون [٣] ذلك كما في معابد أم البشرية [٤] ، وكما أن المسلم يذهب إلى بيت الله الحرام، فإن الماديين يطوفون حول قبور زعمائهم كما يحدث في الاتحاد السوفيتي [٥].

العبادة لله لا للمادة:

يتفق المؤمنون والماديون كل فيما يعتقد: أن ظواهر العلم متغيرة وأن كل

---

(١) مواقف حاسمة (ص ٨٢) نقلاً عن الدكتور يحيى هاشم، في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٧٠- ٧١).

(٢) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٦).

(٣) انظر: للأهمية العلم والدين في الفلسفة المعاصرة (ص ٥٠- ٥٣).

(٤) انظر مجلة أكتوبر بتاريخ ١٩٧٧/١١/١٣ نقلاً عن: في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٢٣).

(٥) في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٢٦).

متغير له أصل صدر عنه، وظواهر العالم لها أصل تتغير عنه وهذا متفق عليه ، ولكن الكلام في هذا الأصل، هل وجوده لذاته أو لغيره؟ المؤمنون يقولون إن أصل الكون وهو الله وجوده لذاته، والماديون يقولون المادة التي صدر عنها الكون وجودها لذاتها. والمؤمنون يجمعون على أن الله ذو سلطان لا راد لأمره تخضع له حركة الأشياء والماديون يقولون ذلك أيضًا بالنسبة للمادة.

والسؤال الذي يطرح للمؤمن والمادي هو:

هل هذا الأصل من جنس العالم الذي نعرفه أو ليس من جنسه؟

الماديون يقولون: إنه من جنس هذا العالم؛ لأنهم لا يعترفون بغير المادة، والمؤمنون يقولون: إنه ليس من جنس هذا العالم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى :١١] .

والماديون يقعون في التناقض حين يقولون إن أصل العالم من جنس العالم للآتي:

١- لأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه جزءًا منه، والقول بأنه أصل العالم يقتضي كونه غيره وهذا تناقض.

٢- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم يقتضي كونه ذا بداية لأن ما هو من جنس العالم له بداية كما أثبتت النظريات العلمية وهم يقولون بأزليته.

٣- ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادي يقتضي كونه فانيًا لأن ما هو من هذا العالم يفنى وهم قد قالوا بخلوده.

ولا يقال إننا نريد بالأصل المادة من حيث هي مادة، وهي عندنا (أي الماديين) واجبة لا نهائية أبدية أزلية فلم نقع في التناقض.

ونحن نقول للماديين إن ما تقولونه عن المادة المتصفة بما تقدم يخرجها عن كونها من جنس هذا العالم المادي الذي نعرفه؛ لأن ما نعرفه من هذا

العالم المادي إنما هو أفراد فنعرفه ممكن الوجود منتهيًا له بداية وله نهاية.

فما السبيل إلى معرفتكم المادة المطلقة التي وصفتموها بالأزلية والأبدية وهي من جنس العالم المادي الذي نعرفه.

ولذلك فأنتم تقولون بشيء ليس من جنس العالم وإن سميتموه مادة فهو خارج عنها غير متصف بصفاتها (١).

وبعد تلك المقارنة نخلص إلى أن المؤمنين يعبدون إلهًا حقًّا متصفًا بصفات الجلال والكمال.

أما الماديون فيشركون مع الله غيره حين يتخذون المادة إلهًا وهم في ذلك إنما يعبدون هواهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية :٢٣-٢٤] .

إن الله عز وجل يرسم صورة للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت الذي يحركها وتشعر به وهو الله ، ثم تتعبد للهوى وتخضع له وتقيمه إلهًا قاهرًا لها مستوليًا عليها ، إن القرآن الكريم يعجب من هذا الذي اتخذ إلهه هواه بعد معرفته للحق الذي كان ينبغي أن يصده عما اتخذه من دون الله ولكن؛ لأنه لم يرعوى لهدى الله فإنه استحق الإضلال من الله وتركه في عمايته ، ولذلك ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة (٢).

فمهما قدمت له الأدلة والبراهين فلن يهتدي لأنه رفض هداية الله بداية فاستحق الجزاء على ذلك الرفض ، وكأن تلك الآية يقرؤها الإنسان للمرة الأولى وهو يرى التطابق بين الفكر المادي وأصحابه والتوصيف الدقيق لهم من الله في هذه الآية الفذة الفريدة ولا يملك الإنسان إلا أن يقول سبحان من أنزل القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين وخسارا وبعدا للظالمين الذين حجبوا أنفسهم عن التعرض لهداية الله وتوفيقه.

---

(١) انظر: في مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٢٣٨- ٢٤٠) بتصرف.

(٢) انظر: ظلال القرآن (٥/٣٢٣٠- ٣٢٣١).

القائلون بالصدفة في خلق العالم والرد عليهم

الشبهة الثانية: القول بالصدفة

لقد وجد قديمًا في فلاسفة اليونان من ذهب إلى أن الحياة نشأت اتفاقا دون أي غائية أو علة خارجية وبنى العالم على الاتفاق والمصادفة [١].

وهذا بعينه ما وجد عند الدهريين الذين ذهبوا إلى أن العالم كان في الأزل أجزاء مبثوثة تتحرك على استقامة فاصطكت اتفاقا فحصل عنها العالم الذي نراه [٢].

وإذا كان القدامى من الماديين والدهريين قد ذهبوا إلى هذا القول فإن كثيرا من الماديين المحدثين ذهبوا إلى القول بالصدفة لئلا يفسروا الكون بخالق، من هؤلاء «**أرنست هكل**» الذي ذهب إلى أن المادة هي الموجد الضروري للحياة وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو «**المونيرا**» التي تركبت اتفاقا من «**الأزوت والهيدروجين والأكسجين**» ومنها تكونت الحياة [٣].

ووصل الثقة بالصدفة وما ينتج عنها أن زعم «هكسلي» بأنه «**لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد (شكسبير) فكذلك كل الكون الآن نتيجة لعمليات عمياء تدور في المادة لبلايين السنين** [٤].

بل وصل الأمر إلى ابعد من ذلك حين زعم «**هكل**» [٥] عالم البيولوجيا أنه

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية (ص ٤٠).

(٢) مفيد العموم ومبيد الهموم للخوارزمي (ص ١٠٦).

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة (ص ٤٠٠).

(٤) الإسلام يتحدى (ص ٦٥)، وانظر: الله من الفطرة والدليل (ص ٦٠) الشيخ محمد حسن آل ياسين (ص ٦٠).

(٥) أستاذ علم الحيوان بجامعة فيينا ١٨٣٤- ١٩١٩.

قادر على خلق الإنسان يقول : **«ائتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان»** (١).

ويلخص الفيلسوف «**برتراند رسل**» تاريخ البشرية كلها في القول بالصدفة فيقول : **«ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة اجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة»** (٢).

كانت هذه هي شبه القائلين بالصدفة وهذه الشبهه لا تخرج في مضمونها عن الشبه الأولى اللهم إلا في الشكل فقط ولكن المضمون واحد .

وسنحاول أن نفند تلك الشبهات مرتكزين على القرآن الكريم مستخرجين منه الأدلة الباهرة التي تبطل القول بالصدفة عن طريق ما أودعه الله في الكون والإنسان والحيوان والنبات من قصد وتدبير مستأنسين بمفهوم العلماء حول إبداع الله في هذه الأشياء مستعينين في الوقت نفسه بما قرره العلماء المحدثين من نتائج العلم الحديث حول ما نستشهد به من نماذج.

إن القرآن الكريم فيه من الدلائل التي تضيف إلى الخلق والإبداع العناية والقصد في الكون بأسره من شمس وقمر وجبال وأنهار وإنسان وحيوان ونبات ، لأن كل مخلوق خلقه الله إنما خلقه لغاية وخلقه بقدر ، وإن غاب عن المخلوقين فلا يغيب عن الخالق جل في علاه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر :٤٩] .

وسنحاول عرض نماذج من الآيات التي تتحدث عن الكون وما فيه من ليل ونهار وشمس وقمر وكذلك للآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان والعناية به، ثم خلق الحيوان ثم خلق النبات .

---

(١) الإسلام يتحدى (ص ٧٠).

(٢) ويليام توبلوتشي: مقال بعنوان المادية وحدها لا تكفي ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم.

أولا: الآيات الكونية ويعرف هذا الاستدلال بدليل الآفاق :

١- يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران :١٩٠] .

٢- ويقول سبحانه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام :٩٦] .

٣- ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: ٥].

٤- ويقول: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد :٢] .

٥- ويقول سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم :٣٣] .

٦- ويقول تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس :٣٧-٤٠] .

هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر هي التي يستدل بها العلماء فيما يسمى:

بالدليل الغائي :

وقد قال بهذا علماء الإسلام وعلى رأسهم «ابن رشد» [(١)] وقال به الغربيون واعتبره «كانط» أوضح الأدلة كلها على وجود الله [(٢)] ، ولكن مع كل ما قاله العلماء تبقى آيات القرآن الكريم شاهدة على أن هذا الكون خلقه الله وأبدعه

(١) منهاج الأدلة (ص ١٥٠).

(٢) المدخل في الفلسفة (ص ٢٤٤).

وسخره ، وأي انحراف وخروج عن المسار الذي رسمه الله لمخلوقاته سيحيل العالم إلى فوضى واضطراب ولن تعمر الأرض، بل لن تبقى.

والآيات التي عرضناها خير دليل على ذلك فإن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لدلائل عظيمة شاهدة على الإبداع والعناية ولذلك كانت من المعجزات التي أيد الله رسوله بها .

فقد روى الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا عصاه ، ويد بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فأتوا النبي فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا . فدعا ربه ، فنزلت الآية ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران :١٩٠] «فليتفكروا فيها» (١).

إن الشمس والقمر وسيرهما الدقيق لمن الدلائل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته ، ففلق ظلمة الليل بنور الصبح لمن أعظم النعم لأن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب وأكثر وقعا في النفوس من الأحوال الأرضية.

وإن الناظر للسماء وما فيها من كواكب تزينها ويهتدي بها في ظلمات الليل ليمكن أن يتدبر بهذه النجوم والأفلاك ويستدل بها على اللطيف الخبير (٢).

إلا إن الشيء الذين يلفت النظر ويثير الانتباه هو حركة الشمس والقمر وسير كل منهما في فلك يسبحون فهذا من أعظم الدلائل وأبينها على القصد والغاية ، فضلا عن أن العلماء المحدثين قد اكتشفوا أفضل تعبير عن حركة الشمس والقمر هو لفظ السباحة.

---

(١) لباب المنقول في أسباب النزول بهامش الجلالين (ص ١٠١).
(٢) انظر: الرازي (١٣/٩٤- ٩٨، ١٠٠- ١٠١)، والكشاف (٢/٣٨- ٣٩).

يقول الأستاذ وحيد الدين خان «**كان الإنسان في العصر الغابر يشاهد النجوم تتحرك وتبتعد عن أماكنها بعد وقت معين ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوبا جديدا فليس هناك تعبيرا أروع ولا أدق من (السباحة) لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف**»(١).

فالشمس والقمر لا يتسهل لأحد منهما ولا يستقيم ولا ينبغي لأحدهما أن يترك فلكه الذي حدد له لجريانه ودورانه ، والمسافات التي جعلها الله بين مدارات الكواكب بعيدة شاسعة حتى لا تصطدم ، وكل مقدر له أن يسير في فلكه سابحا فيه كما عبر القرآن الكريم (٢).

ويأتي الإعجاز في وضع الشمس والقمر بالنسبة للأرض.

إن الله عز وجل أتقن حركة الشمس والقمر وقدر بعدهما عن الأرض فالشمس التي نعدها اليوم وسيلة حياتنا تبلغ درجة حرارة سطحها اثنتي عشرة ألف درجة «فهرنهيت» والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣٠٠٠/٠٠٠ ميلا ، وهذا البعد الهائل لا يتغير أبدا بالزيادة أو النقصان وفى ذلك عبرة وتقدير من العزيز العليم لأن هذه المسافة لو نقصت واقتربت الشمس من الأرض فإن الحياة تصبح مستحيلة على الأرض ، ولو أن هذه المسافة بعدت أيضًا فإن البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد سوف تقضى على الحياة على وجه الأرض ولو حل محل الشمس نجم آخر، فإن الأرض ستصبح تنورا رهيبا لا حياة فيه لإنسان أو حيوان أو نبات أو جماد(٣).

هذا عن الشمس . فماذا عن القمر ؟

إن القمر قد جعل الله له مسافة معينة يبعد بها عن الأرض ومن هذه

---

(١) الإسلام يتحدى (ص ١٢٥)، وانظر: الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ١٨٣-١٨٤).

(٢) انظر ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦٧- ٢٩٦٩)، وانظر: النسبية والكون (ص ١١/ ١٢) للدكتور عبد المحسن صالح وانظر: التوحيد (٣/٣٢- ٣٤).

(٣) الإسلام يتحدى (ص ٥٨) بتصرف.

المسافة ينتفع بالقمر ويسير الناس في ضوئه ويتغنى الشعراء بطيفه .

فماذا لو بعد عن المسافة التي عليها الآن ؟ إن المد في المحيطات والبحار الذي يرتبط بالقمر ، كان سيبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت ستُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها وفى هذه الحالة ربما كانت لن توجد الآن القارات ، وكانت الكرة الأرضية من الممكن أن تتحطم من جراء هذه الاضطرابات وكان المد الذي في الهواء سيحدث أعاصير كل يوم [١].

من الذي قدر هذه الأمور كلها، الصدفة العمياء أم قدرة الله الواحد القهار ؟

سنضرب مثالا بسيطا من الواقع العالمي : إن الدول الكبرى الآن تتبارى وتتباهى في إطلاق الأقمار الصناعية فهل إذا زعم أحد أن ألف قمر صناعي أو مائة أو عشرة أو قمرًا واحدًا خرج من الأرض وأخذ يسير في مدار مرسوم متزن حول أرضنا نتيجة لتفاعلات كيميائية بين الأسلاك والحديد وبقية المواد المختلفة هل سيجد هذا الإنسان من يصدقه؟ إن الدنيا بأسرها ستسخر من هذا الإنسان لأنه قد أنكر علم العلماء وتقنيات محطات الفضاء ومهارة الفنيين والمدربين ، قمر صغير لا يصدق أحد بأنه نشأ من تلقاء نفسه ويأتي من يزعم من الماديين أن هذا العالم وجد بالصدفة بما يحويه من ملايين من الأفلاك والنجوم والمجرات السابحة في مداراتها المنتظمة [٢] التي يذهب علماء الفلك إلى أن مصادفة مرور نجمين متقاربين لدرجة تكفي لإحداث مد خفاق هدام هي في نطاق الملايين، وأن مصادفة التصادم هي نادرة لدرجة وراء الحسبان [٣].

---

(١) انظر العلم يدعو للإيمان (ص ٥١، ٥٢)، والألوهية في الفكر الإسلامي (٢/١٠١، ١٠٢) وعقيدة المسلم للشيخ الغزالي (ص ٢٢- ٢٣).

(٢) انظر التوحيد (٣/٣٨، ٣٩).

(٣) العلم يدعو للإيمان (ص ٥٢).

إن هذا النظام العجيب والمحكوم القائم على التدبير والتنظيم هو الذي جعل أحد كبار الملحدين وهو « برتراند رسل» يقول : «**إننا نجد حتى في مملكة الكواكب عمليات تنطوي على خصائص غائية لا تختلف اختلافا جوهريا عن ملامح السلوك الغرضي في الحيوانات العليا**»(١).

أين ذهبت المصادفة التي زعمها «رسل» وادعى أن تاريخ البشرية كلها قائم عليها؟ إن الإبداع والنظام والتقدير في الكون يجعل كبار الملحدين يعترفون بالقوة العليا المهيمنة والمدبرة والمسيطرة ، ولكن يمنعهم من الإيمان بها والدعوة إليها الاستكبار والهوى.

ثانيًا: الإنسان:

إن الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم وسخر له الكائنات كلها ولفت نظر الإنسان إلى نفسه وطلب منه أن يتأملها ويتدبر ما فيها من لطيف الصنع وعظيم الغاية ، وجاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت :٥٣]، وفي قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات :٢١] .

ويمتن الله تعالى على الإنسان فيقول: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم :٦٧] .

ويلفت النظر إلى تكوين الإنسان منذ أن كان نطفة فعلقة فيقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون :١٢-١٤].

---

(١) فلسفة برتراند رسل (ص ٣٥) للدكتور محمد مهران، دار المعارف ١٩٧٦م.

ويذكّر الإنسان بالنعم الظاهرة فيقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك :٢٣] .

ويقول عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد :٨-١٠] .

وهذه الآيات في مجموعها تتحدث عن الإنسان وما أودع الله فيه من ملكات وأعضاء ويسمي العلماء هذا الدليل:

الدليل النفسي:

والحق أن الذي يقرأ ما كتبه المفسرون [١]، وعلماء الإسلام حول ذلك الدليل النفسي يرى أن العلماء لم يهتموا بالجانب الظاهري فقط من هذه النعم، وإنما التفتوا إلى الجانب الباطني في الإنسان من إلهام وإدراك وشعور وفرح وحزن وغير ذلك من الأشياء التي لا تُرى ولا تُشاهد، وإن الآيات لتشير إلى ذلك في وضوح وجلاء، ومن العلماء الذين اهتموا بالجانب النفسي في الإنسان من هداية ومعرفة لله ورجوع إليه الإمام الغزالي في «**إحياء علوم الدين**» الذي يذكر أن من أهم نعم الله على الإنسان الأشياء الحاصلة للنفس وهي من أخص النعم كالفضائل النفسية التي يرجع حاصلها مع تشعب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق، والإيمان يشمل علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، ويشمل أيضًا علم المعاملة مع الخلق وحسن الخلق الذي يشمل: ترك مقتضى الشهوات والغضب ويسمى هذا النوع بالعفة ويشمل مراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات حتى لا يمتنع أصلاً.. ويخلص إلى أن «**الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة وعدالة**» [٢].

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٧/١٣٩- ١٤٠)، وابن كثير (٤/١٠٥- ٢٣٥)، والقرطبي (١٥/٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) انظر إحياء علوم الدين (١٢/٢٢٤٠- ٢٢٤١).

ولم يكتف الغزالي بلفت النظر إلى النعم النفسية التي في داخل الإنسان ولكنه أوضح النعم الظاهرة التي أنعم الله بها على الإنسان وأعظم تلك النعم نشأته وتكوينه التي يقف الخلق عاجزين أمامٍ صنع الله في الإنسان وتكوينه من نطفة ثم علقة ثم مضغة، إن الإنسان إذا فكَّر في عملية تكوينه في بطن أمه وجد آيات وآيات، ذلك الجزء الذي يصنع العين لماذا يصنع العين؟ والجنين لا حاجة له بالعين وهو في بطن أمه من الذي نظم للإنسان هذا الجهاز البصري ليرى به ما حوله بعد خروجه إلى الحياة؟ من الذي كوَّن للعين أغشية بصرية رقيقة وعدسة محكمة وماءً زجاجيًّا مقدرًا وشبكية تتكون إحدى طبقاتها من ثلاثين مليون عود بصري وثلاثة ملايين مخروط بصري؟ ومن الذي أخبر ذلك الجزء من النطفة أن ينشئ العصب البصري ويشق له فتحة بقدر محدد في الجمجمة، ويصنع مركزًا بصريًّا في المخ ويربط به ذلك العصب البصري وما يقال في العين يقال في الرئتين، إن الجنين لا حاجة له إلى الرئتين بل لو دخل قليل من الهواء إلى القرار المكين لأحدث فيه أضرارًا بالغة، فلماذا يصنع إذن هذا الجهاز التنفسي لاستقبال الهواء؟ إن الذي صنع وإن الذي قدَّر هو العالم بما يحتاج إليه الجنين بعد خروجه إلى الحياة ولا نملك إلا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم :٣٢][١].

وما يُذكر عن الجنين في بطن أمه يُذكر عن الإنسان بعد أن يخرج إلى الحياة وما فيه من نعم ظاهرة من يدين ورجلين وسمع وبصر وإدراك وإحساس.

ولقد عرض «**الإمام الغزالي**» هذه النعم الظاهرة في بيان رائع وأسلوب بديع مبينًا الترابط الذي يأخذ بالألباب بين أعضاء الإنسان بعضها والبعض الآخر [٢].

(١) انظر توحيد الخالق (٢/٤٥- ٤٧)، وانظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير (١٦٢، ١٦٣) وانظر الاعتقاد إلي سبيل الهداية والرشاد (ص ٤١، ٤٢).

(٢) انظر إحياء علوم الدين (١٢/٢٢٥٤- ٢٢٦٠).

الإنسان وأعضاؤه في العلم التجريبي:

إذا كان المفسرون وعلماء الإسلام «**كالغزالي وابن الوزير**» وغيرهم قد لفتوا الأنظار إلى النعم الداخلية والخارجية للإنسان وبينوا بديع صنع الله فيه، فإن العلماء التجريبيين قد انكبوا على دراسة الإنسان من الناحية العضوية وخرجوا بنتائج لا يملك الإنسان إلا أن يقول سبحان الله الذي خلق فسوى والذي قدَّر فهدى، وفي الوقت ذاته لا يملك إلا أن يسخر من الماديين الذين يقولون بالصدفة، فماذا قال التجريبيون؟

أ- مخ الإنسان:

إن ملايين الأخبار تجري ليل نهار على جهازنا العصبي، وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقه وفي حركاته وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة وتتحكم في الحركات الرئوية، ولو لم يكن هذا النظام موجودًا في أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقًا مبعثرًا تسلك كل منها مسلكًا خاصًا. ومركز هذا النظام مخ الإنسان وفيه يوجد ألف مليون خلية عصبية ومن هذه الخلايا تخرج الأنسجة العصبية، ويجري في هذه الأنسجة نظام إرسال واستقبال للأخبار بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، ومن خلال هذه الأنسجة نتذوق ونسمع ونرى ونباشر سائر أعمالنا.

ب- في حاسة الذوق:

توجد ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة ولكل منها مسلك عصبي متصل بالمخ وبواسطة هذه الشعيرات يحس الإنسان بالمذاقات المختلفة ولولا هذه الشعيرات ما شعر الإنسان بطعم حلاوة أو مرارة.

ج- وفي حاسة الإبصار:

يوجد في كل عين مائة وثلاثون مليونًا من الخلايا الملتقطة للضوء تقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ.

د- وفي حاسة السمع[(١)]:

يوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية ومن خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا يسمع مخنا.

هـ- وفي حاسة الإدراك والإحساس:

توجد أنسجة حسية على امتداد جلد الإنسان فإذا قربنا شيئًا حارًّا فإن ثلاثين ألفًا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها إلى المخ، وإذا قربنا شيئًا باردًا إلى الجلد فإن ربع مليون من الخلايا ترسل هذا الإحساس إلى المخ فيرتعد الجسم، ثم تتسع الشرايين الجلدية فيسرع مزيد من الدم إليها وتزودها بالحرارة.

و- النظام العصبي:

في الإنسان يشتمل على عدة فروع منها الفرع المتحرك ذاتيًّا ويقوم بأعمال الهضم والتنفس وحركات القلب وتحت هذا الفرع يوجد نظامان:

أحدهما: النظام الخالق للحركة. Sympathetic system.

الثاني: المانع للحركة. Payasy Sympathetic والنظام الثاني يقوم بعملية المقاومة والدفاع.

والنظام الأول: لو ترك الأمر له لزادت حركات القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبها.

ولو ترك الأمر للنظام الثاني: لتوقفت حركة القلب توقفًا تامًّا ولكن توزعت أعمال النظامين بدقة وعناية.

فالنظام الثاني: يسود عند النوم فيسود السكون جميع الحركات الجسمية[(٢)].

---

(١) انظر: العلم يدعو إلى الإيمان (ص ١١٩).

(٢) انظر: بصفة أساسية الإسلام يتحدى (ص ٥٤، ٥٥) بتصرف كبير، وانظر: العلم يدعو إلى الإيمان (ص ١١٩) وانظر: القرآن الكريم يتحدى (ص ٣٨١، ٣٨٢).

وبعد هذه الدلائل الكبرى التي أودعها الله في الإنسان يأتي «هكلي» ويقول: ائتوني بالماء والهواء وسأخلق الإنسان.. هنا يقول: إني سأخلق فكأن الصنعة لا بد لها من صانع.

يقول الأستاذ كريس موريس: «**إن (هكل) يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها ثم يخلق الجينات أو حملة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هذه الذرات حتى يعطيها ثوب الحياة وإن إمكان الخلق بعد هذه المحاولة لا تعدو أن تكون واحدًا على عدة بلايين ولو افترضنا أن (هكل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها** «صدفة» بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته» [(١)].

ومع هذا الادعاء فلم ينجح أحد إلى الآن في خلق نطفة أو خلية حيَّة فضلاً عن الإنسان، وما زال التحدي قائمًا ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان :١١] .

ثالثًا: في الدواب:

إن نعم الله لا تحصى على الإنسان في الأنعام فقد سخرها الله له تحمله من بلد إلى بلد ويلبس من أصوافها وأوبارها، ثم يأكل منها لحمًا ويشرب منها لبنًا، ولقد وردت آيات في القرآن الكريم تتحدث عن القصد والعناية والغاية من خلق الدواب والأنعام، لا يمكن أن تكون إلا من فعل قادر حكيم عليم.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام :٣٨] .

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل :٦٦] .

ويقول سبحانه عن النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ

(١) الإسلام يتحدى (ص ٧٠، ٧١).

مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل :٦٨-٦٩].

هذه الآيات يبين الله فيها أنه ما من دابة ولا طائر إلا عالم مثل عالم الإنسان في كونها جماعات وفي كونها مخلوقات يشبه بعضها بعضًا ويأنس بعضها ببعض ويتزوج كل جنس مع جنسه، وأن الله دبر أمرها وخلقها وهداها وتكفل برزقها (١).

ولقد قام العلماء المحدثون بدراسة سلوك الحيوانات في العقود الأخيرة وانتهوا إلى وجود جماعات حيوانية حقيقية ولم يتم اكتشاف تفاصيل هذه التنظيمات إلا منذ عهد قريب (٢)، وسوف ندرس بعض الإشارات التي وردت في القرآن الكريم عن الحيوانات والطيور ومنافعها وما ألهمه الله في هذه الحيوانات والطيور من إبداع ودقة ونظام.

أ- الأنعام:

إن العبرة التي يلفت الله تعالى نظر الإنسان إليها هي خروج اللبن ذو القيمة الغذائية العالية من بين فرث ودم، وإذا كان القدامى من العلماء قد نظروا إلى الآية على أنها من الناحية الظاهرية معجزة ومن أكبر النعم على الإنسان (٣)، فإن العلم الحديث كشف دلالات ما كانت لتخطر على بال أحد أودعها الله في تلك الآية.

ولقد لفت إلى هذه الدلائل اللجنة التي وضعت تفسير المنتخب الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (٤)، وأبرز هذه الدلائل أورده «موريس

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (١٢/ ١١٣، ١١٤)، والألوهية في الفكر الإسلامي (ص١٠٨، ١٠٩).

(٢) دراسة الأسفار في ضوء المعارف الحديثة (٢١٨).

(٣) انظر: الرازي (٢٠/٦٤- ٦٨)، والقرطبي (١٠/١٢٥، ١٢٦)، والكشاف (٢/٤١٩).

(٤) انظر: المنتخب في التفسير (ص ٣٩٥) الهامش، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٢م.

بوكاي» في كتابه «**الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة**» يقول في تعليقه على هذه الآية «**تأتي المواد الأساسية**» التي تتكفل بتغذية الجسم عامة من تفاعلات كيميائية تحدث في القناة الهضمية، وتأتي هذه المواد من عناصر موجودة في محتوى الأمعاء، وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة المطلوبة في التفاعل الكيميائي فإنها تمر عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامة ويتم هذا الانتقال بطريقتين: إما مباشرة بواسطة ما يسمى بالأوعية الليمفاوية، وإما بشكل غير مباشر بواسطة الدورة البابية التي تقود هذه المواد إلى الكبد حيث تقع عليها بعض التعديلات ثم تخرج من الكبد لتذهب أخيرًا إلى الدورة الدموية بهذا الشكل إذ يمر كل شيء بالدورة الدموية، والغدد الثديية هي التي تفرز مكونات اللبن وتتغذى هذه الغدد إذا جاز القول بمنتجات هضم الأغذية التي تأتي بواسطة الدم الدائر.

الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية ومغذي الغدد الثديية منتجة اللبن مثلما يغذي أي عضو آخر، كل شيء يحدث هنا ابتداءً من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجدار الأمعائي نفسه، هذه المعلومة المحددة تُعد اليوم من مكتسبات الكيمياء، وفسيولوجيا الهضم كانت غير معروفة مطلقًا في عصر النبي محمد ﷺ وإن معرفتها لترجع إلى العصر الحديث [١]، وإن تحدي الله للبشر ليظهر في هذه الآية فإن البشرية في أوج تقدمها لا تستطيع أن تخرج لبنًا من بين دم وفرث كما بينت الآية [٢] بهذا الترتيب الدقيق المعجز.

ب- النحل والنمل:

إن النحل والنمل من عجائب المخلوقات، ولقد هداها الله عز وجل إلى أمور يعجز علماء العصر أن يرتبوها أو يخططوها على هذا النحو.

(١) انظر: دراسة الكتب المقدسة (ص ٢٢٢، ٢٢٣).
(٢) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٠١).

فالنحل لها مملكة خاصة بها ولها ملكة تقوم على رعاية شئون المملكة وتدافع عنها وإن البيت الذي تبنيه النحلة لهو من أعجب العجب في شكله السداسي بالذات دون سائر الأشكال ؛ لأن الشكل السداسي إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديرًا كاستدارة الرحى ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضًا حتى يصير طبقًا واحدًا لا يدخل من بيوته رؤوس الإبر مما يعجز عن صنعه البشر، فمن الذي ألهمها ذلك وهداها؟ هل هي الصدفة العمياء أو العزيز العليم؟

ثم الإلهام لها من قبل الله أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون وهو الترتيب الذي يتناسب مع حياة الإنسان فقد ألهمها الله عز وجل أن تكون مستعدة ؛ لأن تحيا في الكهوف والجبال مع الإنسان في طوره الحجري يوم كان الإنسان يسكن الكهوف والمغارات، كما ألهمها أن تسكن الأشجار عندما انتقل الإنسان من حياة الرعي والتنقل إلى حياة الزراعة والاستقرار، ثم ألهمت في النهاية أن ترحل إلى الخلية عندما يتعلم الإنسان الصناعة ويتحضر على فنونها..

فالمراحل الثلاث التي ذكرت في سياق الوحي للنحل هي أوامر إلهية لطبيعة النحل أن تستجيب لحاجات الإنسان كلما طور الإنسان حياته ثم هناك الإلهام الذي يتخاطب النحل عن طريقه، وهو الرقص الذي يعرف بواسطته الاتجاه الذي يجب أن يتخذه والمسافة التي توجد عليها الزهور التي سيمتص رحيقها وأخيرًا العسل الذي يخرج من بطونها، بما يحويه من شفاء للناس، وهذا ما قرره علماء العلم الحديث أخيرًا، وصدق الله العظيم الذي قدَّر فهدى [(١)].

---

(١) انظر: شفاء العليل في القضاء والقدر والتعليل لابن القيم (ص ٦٦- ٦٨)، العلم يدعو إلى الإيمان (ص ١١٦- ١١٨)، والألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٠٠- ١٠١)، ودراسة الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ٢١٩).

أما النمل:

فله شأن آخر في التنظيم والترتيب والهداية، من أول خروجها من بيتها للبحث عن الطعام إلى الحصول عليه إلى الرجوع به إلى دخوله في بيتها، ذلك بأنها تخرج للبحث عن رزقها، فإذا وجدته حملته فإذا لم تستطع حمله استدعت زميلاتها فيتعاونون جميعًا في حمله وحين تخزينه تنظر إليه فإذا كان مما ينبت فلقته فلقتين فإذا كان في فلقها اثنتين إنبات عمدت إلى كل فلقة ففلقتها اثنتين فمن الذي أخبرها أن هذا النبات ينبت في فلقتين وهذا لا ينبت؟ إنه الله تعالى الذي رزقها حاسة شم قوية تدرك بها ما يدركه غيرها بالبصر أو السمع (١).

وقد لاحظ العلماء أن النملة «**تقوم بعمليات معقدة، فإذا كانت مكونة من ذرات مادية فمن الذي ألهمها ذلك؟ لا شك أن هناك خالقًا أرشدها إلى كل ذلك**».

والأمثلة لا تحصى على هداية الله للكائنات التي خلقها، والمتأمل في سلوكها وما تقوم به من أفعال لا يمكن أن يقول إنها صادرة عن الصدفة العمياء، وما تفعله ثعابين البحر من هجرات طويلة وعودة صغارها إلى مواطن آبائها الأصلية إلا نموذج لتلك الهداية والأمثلة كثيرة في عالم الطيور والزواحف والحيوانات وجميعها أدلة تشهد بخالق بارئ مصور خلق كل شيء فقدره تقديرًا (٢).

ثالثًا النبات:

من الأدلة البليغة التي تثبت العناية والقصد في النبات ما ذكره الله تعالى في الآيات التي تتحدث عن النبات، وعجائب صنع الله فيه وتزاوجه نذكر من هذه الآيات:

---

(١) انظر: شفاء العليل (ص ٦٩- ٧١).

(٢) انظر: العلم يدعو للإيمان (ص١٢٠- ١٢١)، وانظر: الأمثلة المتعددة التي ذكرها الشهيد سيد قطب في ظلال القرآن عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر :٤٩] الآية ٤٩ من سورة القمر، وانظر: ظلال القرآن (٦/ ٣٤٣٨/- ٣٤٤١).

١- يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد :٤] .

٢- ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل :١٣] .

٣- ويقول عز وجل: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج :٥].

٤- ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان :١٠].

٥- ويقول سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس :٣٦].

هذه الآيات في مجموعها تقرر أمرين:

الأمر الأول: إعطاء كل نبات خاصية معينة في الطعم والشكل بالرغم من كونها متجاورة متلاصقة ومع ذلك تُرى وهي تُسقى بماء واحد ومتعرضة لحرارة واحدة، بالرغم من ذلك كله يراها الإنسان متغايرة الثمر في الأشكال، والألوان، والطعوم، والروائح متفاضلة في الأكل [(١)]، منها الحلو ومنها المر، فلو كانت الصدفة هي التي أنتجت هذه الأشياء هل كانت ستراعي هذا التفاضل؟ نقول كلا وألف كلا ، إن الذي خلقها «**قادر مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه**» [(٢)].

الأمر الثاني: التناسل في النبات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات :٤٩].

---

(١) انظر الكشاف (٢/٣٤٩)، والرازي (١٩/٦- ٨)، (٢٠/٣- ٥)، الدين (ص ١٧٦ ١٧٧).

(٢) الكشاف (٢/٣٤٩).

وإن من عجائب صنع الله في النبات عملية التلقيح والتناسل بين النباتات بعضها والبعض الآخر لقد كشف العلم الحديث أن التناسل في النبات يتم بطريقتين:

الطريقة الأولى: **جنسية**: وهذه الطريقة هي التي تحدد العملية البيولوجية التي تهدف إلى إظهار فرد جديد مطابق لذلك الذي أولده، ويتم هذا التناسل الجنسي بواسطة تزاوج عناصر ذكرية بعناصر أنثوية تنتهي إلى مكونات التجديد المجتمعة على نفس النبات أو المنفصلة.

الطريقة الثانية: **اللاجنسية**: وهذه الطريقة يتم التكاثر فيها عن انقسام عضو يكتسب بانفصاله عن النبات الأصلي نموًّا يجعله شبيهًا بذلك الذي خرج عنه.

ولكن كيف ومتى بدأت هذه العمليات؟ لا يكفي أن يكون هنالك ضوء، ومواد كيميائية وهواء لكي ينمو النبات، إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة تؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة، إن تلك البذرة تتكون من أعداد لا حصر لها من العناصر والعمليات تكون نباتًا جديدًا يكون له مثل الصفات للنبات الذي يخرج عنه بحيث لا تنتج حبَّة القمح إلا قمحًا، ولا بذرة البرتقال إلا البرتقال، وبالرغم من التشابه القريب جدًّا بين أنواع النباتات إلا أن لكل نبات صفاته ومميزاته وخواصه، إن كل هذه الترتيبات تدل على نظام رائع ، وجمال لا مثيل له ولا حدود له كل هذه العجائب يراها الإنسان أينما اتجه في عالم النبات العجيب [(١)].

ونحن لا نملك إلا أن نردد قول الله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل :٨٨] . وقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان :١١].

(١) انظر التربية والنبات مقال لسترجون زمرمان ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص١٢١)، وانظر: الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (٢١٥- ٢١٧)، وقصة الإيمان (ص ١٧٩).

استحالة المصادفة من الناحية العملية:

بعد هذا التنويع من الدلائل التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك في أن القول بالصدفة خرافة الماديين، فإننا نعمد في هذه السطور لنأخذ من علم الحساب والإحصاء خطأ القول بالمصادفة من الناحية الرياضية، ولقد أورد «كريس موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك مثالاً يوضح ذلك ، يقول: **«لنفترض أن معك كيسًا يحوي مائة قطعة من الرخام، تسع وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء، والآن هز الكيس، وخذ منه واحدة إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف، والآن جرب مرة ثالثة: إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متوالية هي بنسبة مائة إلى عشرة آلاف مرة بنسبة واحد من المليون ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية»** (١).

هذا مثال واقعي من الممكن أن يقوم به أي إنسان في بيته، فلننقل هذا المثال إلى خلق الكون بالمصادفة ولنجرب عليه ما حدث في قطع الرخام، فسوف ينتج لنا ما لا يتصور بأي مقياس من المقاييس، إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والأيدروجين، والنيتروجين، والأوكسجين والكبريت، وعدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة، وعدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ٩٢ عنصرًا موزعة توزيعًا عشوائيًا واحتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكوِّن جزيئًا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تُخلط خلطًا مستمرًا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

ولم تقف محاولة العلماء عند حد، فقد قام العالم الرياضي السويسري

(١) العلم يدعو إلى الإيمان بتصرف (١٩٣- ١٩٤).

«**تشارلز يوجيه جاي**» بحساب هذه العوامل جميعها، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة: ١ إلى رقم عشرة مضروبًا في نفسه ١٦٠ مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة لإنتاج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزء على سطح الأرض وحدها بطريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدَّرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين [١].

كم يحتاج خلق الإنسان؟ كم يحتاج خلق الحيوان؟ إذا كانت هذه الأرقام من أجل إنتاج خلية حية واحدة، ومن العجيب أن ينسب المادي الكون إلى المصادفة ولا ينسبه إلى الله [٢]، بالرغم من أن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبتها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء [٣].

* * *

(١) انظر مقال فرانك ألن: نشأة العلم هل هو مصادفة أو قصد ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم (ص ٥).

(٢) انظر: مداخل إلى العقيدة الإسلامية (ص١٩٢، ١٩٣).

(٣) الإسلام يتحدى (ص ٧٠).

شبهة القائلين بالتطور والرد عليهم حول التطور مفهومًا وفرضًا

وهذه الشبهة نتائجها متضمنة في الشبهتين السابقتين إذ إنها في التحليل النهائي تهدف إلى أن الكون أزلي أبدي وأنه وُجد بنفسه بدون خالق وأن الأحياء تتطور من جماد إلى حيوان ومن حيوان إلى إنسان.

والقول بالتطور ليس من مبتدعات الماديين المحدثين ولكن يعود القول بالتطور إلى الطبيعيين الأوائل في اليونان، فقد أشاروا عرضًا إلى التطور، وصرح به «**أنكسمندر**» في تفسيره لنشأة الكون حيث زعم أن الأحياء تطورت بعد أن تولدت من التراب والماء والهواء فالكائنات كانت في الأصل سمكًا ثم تطورت إلى الأنواع المختلفة التي نراها.

والإنسان منحدر من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع حملته في بطنها زمنًا طويلاً[١].

وفي الفلسفة الحديثة عُرف القول بالتطور عند «**لامارك**» الفيلسوف الفرنسي ١٧٤٨- ١٨٢٩، وعُرف كذلك عند «**ديدور**» ١٧١٣- ١٧٨٤ ولكنه اشتهر وارتبط باسم الفيلسوف الإنجليزي «**تشارلز داروين**» ١٨٠٩- ١٨٨٢، الذي ذهب إلى أن الباحث الطبيعي إذا تدبر أصل الأنواع وأمعن النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تُخلق مستقلة منذ البدء، بل نشأت من أنواع أخرى، وقد اعتمدت نظرية «**داروين**» في المقام الأول، على مجموعة من الحفريات ومجموعة من الأحياء البحرية، ومن هذه وتلك وجد هناك تشابهًا عميقًا بين الأحياء بعضها وبعض ، فخطر له فرض مؤقت هو تطور هذه الأنواع بالرغم من أن لها أصلاً واحدًا أو بضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت في زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعي، هذا عن

(١) انظر: يوسف كرم (ص ١٥)، وحكمة الغرب (١/٣٥، ٣٦)، والعلم الإغريقي (١/٤٤)، والإغريق (ص٢٣٦، ٢٣٧).

الكائنات الحية [١].

أما عن الإنسان فقد ترك «داروين» مسألة الإنسان معلقة، ولكنه عاد فرأي أن ليس هناك من موجب لاستثنائه من قانون التطور، وقد تبعه في هذه النظرية كثير من الفلاسفة الماديين منهم «توماس هكسلي و«أرنست هكل»، وذاعت هذه النظرية ذيوعًا كبيرًا في الأوساط العلمية بالرغم من عدم علميتها، وسنبين السبب في ذلك عند نقضها إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) انظر: أصل الأنواع: تشارلس داروين (ص١١٩- ١٢٠، ٢١٣) وما بعدها، ترجمة إسماعيل مظهر، وانظر: مدخل إلى الفلسفة أزفلد كولبه (٢١٥- ٢١٥) وأسس الفلسفة (ص ٢٨٥)، وموسوعة الفلسفة (١/٤٧٣- ٤٧٤) للدكتور عبد الرحمن بدوي، وانظر: تاريخ الفلسفة الحديثة (٣٥١- ٣٥٣) وانظر: الإنسان والداروينية: محمد صالح كريم خان، مطبعة الموصل سنة ١٩٧٦م.

الرد على شبهة التطوريين

أولاً: من القرآن:

لقد عرضنا نماذج من الآيات القرآنية التي أوضحت أن الكون لم يكن شيئًا ثم كان بأمر الله ، وأردفنا ذلك بمقررات العلم الحديث التي أثبتت عدم أزلية الكون واستحالة صدور الكون عن مادة لا حياة فيها، وهنا نؤكد على أمرين:

الأمر الأول: أن الله سبحانه وتعالى أعلن الإبداع في خلق الأشياء كلها في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات :٤٩] ، وهذه الآية وغيرها كثير من الآيات في القرآن الكريم تدلنا على الخلق المستقل لكل شيء مما نعلمه، وهذه الآية ترد على الذين يقولون بالتطور من النبات إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى الإنسان.

الأمر الثاني: أن الله عز وجل قد سخر من الذين يقولون ذلك ونفى عنهم العلم، يقول تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف :٥١]. فالذين يتحدثون عن تطور الكائنات بعضها من بعض لم يشاهدوا هذه الكائنات، ولو سألنا واحدًا منهم هل شاهدت نباتًا تحول إلى حيوان؟ سيجيب بالنفي، ولو سألنا آخر هل شاهدت قردًا تحول إلى إنسان؟ سيجيب بالنفي [١].

وحينئذ يقعون في التناقض لأن العلم الذي يبنون عليه إلحادهم ويتبجحون بنتائجه لأنه يقوم على التجربة والحس والمشاهدة، يتناقض مع ما يدعونه لأنه يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمي وهو التحقق من صحة الفروض، وهم لم يتحققوا بعد من فروضهم حول التطور، فكيف ينادون بنظرية التطور على أنها حقيقة؟

---

(١) انظر معجزة القرآن (ص ١٩٣).

بعد تقديم هذين الأمرين ننطلق في عرض حقائق القرآن اليقينية عن خلق الإنسان:

إن أول ما نبدأ به حديثنا عن خلق الإنسان هو: آدم عليه السلام.

الله عز وجل يقرر أنه خلق آدم من تراب وقبل ذلك لم يك شيئًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر :٢٨-٢٩] ، وهذه الآية تبين أن آدم مخلوق بإرادة الله ولم يتطور عن نبات أو حيوان، وبعد أن خلقه خلق زوجه حواء، على اختلاف بين المفسرين هل خلقت من ضلعه أو خلقت من جنسه، ومعرض اختلافهم حول تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء :١].

فهل النفس هنا يقصد بها آدم؟ أو أن النفس هنا بمعنى الجنس أي من جنس واحد؟ ولن نعرض لاختلافهم (١)، فالذي يهمنا هو أن آدم وحواء هبطا من الجنة أسوياء مخلوقين لا متطورين عن شيء آخر، وهذا إن دل فإنما يدل على أن آدم عليه السلام ظهر في أعلى مراحل النضج البشري يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة :٣١-٣٣] .

وشيء آخر نضيفه قبل أن نترك آدم عليه السلام، وهو أن إرادة الله لا

---

(١) انظر الرازي (٩/١٦٠، ١٦١)، والكشاف (١/٤١٢)، والجلالين (ص ٦٤)، والمنار (٤/٣٦٥-٣٦٧) مع تحفظنا على التفسير الذي ذكره الإمام محمد عبده ودافع عنه الشيخ رشيد رضا.

تخضع لنواميس البشر ومقاييسهم، وإلا فماذا يقول التطوريون في خلق عيسى عليه السلام الذي شبهه الله بخلق آدم عليه السلام؟ [(١)].

هذا ما يتعلق بخلق آدم وأنه مخلوق بداية ولم يتطور عن شيء.

أما بني الإنسان فإن الله قد أشار إلى خلقهم منذ أن كانوا نطفة إلى أن اكتملت صورتهم وحسن خلقهم، يقول الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

هذه الآية وغيرها كثير من الآيات التي تتحدث عن الإنسان ومراحل خلقه المختلفة منذ أن كان سائلاً منويًا إلى كمال تكوينه، توضح أن الإنسان مزود من قبل الله تعالى بخصائص معينة تظهره في أحسن صورة، ولا مجال للتداخل على الإطلاق بين الحيوان والإنسان لأنهما خلقان مستقلان لا يمكن للحيوان أن يتجاوز نوعه ولا يمكن للإنسان أن يتجاوز نفسه فهما مختلفان، والإنسان مميز بالنفخة الإلهية التي صار بها إنسانًا مسخرًا له ما في الأرض جميعًا، مجهز لحمل الأمانة التي كلفه الله بها [(٢)]، فالأطوار التي يمر بها الإنسان سواء وهو في بطن أمه أو بعد خروجه للحياة لا تمت للتطور الذي يتكلم عنه الماديون بصلة، فهذه المراحل والأطوار لا تعدو إلا أن تكون نموًا للإنسان، من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، وكذلك من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة، وهذه الأطوار لم تخرجه عن كونه إنسانًا فيه كل مقومات الإنسان، يشير إلى هذا «موريس بوكاي» في قوله: «إن

---

(١) انظر: الإسلام والاتجاهات العلمية (ص ٦٢- ٦٤).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٢٢٥٧/٤- ٢٢٦٠)، وانظر: (٣٧١٤/٦).

مقولات القرآن عن التناسل البشري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولية أنفقت البشرية مئات السنين لمعرفتها» [(١)].

أما ما يستند عليه التطوريون في دعواهم من وجود تشابه بين الإنسان والإنسان، وبينه وبين الحيوان، فلا ينهض دليلاً على التطور وإنما يستخدم شاهدًا على قدرة الله عز وجل، فإنه بالرغم من هذا التشابه فإن لكل إنسان صورة تختلف عن الآخر، هذا فضلاً عن أن البشرية كلها منذ خلقت إلى أن يفنى العالم لن يجد فيها العلماء بصمات إنسان مشابهة لبصمات إنسان آخر على امتداد تاريخ البشرية كلها، فمن الذي أوجد هذا الاختلاف؟ [(٢)] العناصر المتطورة التي لا تحس ولا تشعر أم الله الخالق البارئ المصور؟ إنه الله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

إن دعاة التطور لا دليل لهم من عقل أو حس، يقول «الأفغاني»: «من واهياته ما كان يرويه «دارون» عن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونًا صارت الكلاب تولد بلا أذناب كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته، وهل صمت إذن هذا المسكين خبر العبرانيين والعرب وما يقومون به من الختان لآلاف السنين وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونًا إلّا لإعجاز» [(٣)].

وسوف يتضح لنا تهافت نظرية التطور من خلال العلم الحديث عند عرضنا لنقد نظرية التطور.

---

(١) دراسة الأسفار المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (ص ٢٣٤) وانظر: الدراسة الوافية التي قدمها عن خلق الإنسان في القرآن الكريم (ص ٢٢٥- ٢٣٢).

(٢) انظر: معجزة القرآن (١٩٣- ١٩٤)، وانظر دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث (ص ٣٤٨- ٣٤٩)، وانظر: الدكتور يوسف عيسى: مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد الثالث نقلاً عن الإسلام والاتجاهات العلمية (ص ٥٨- ٥٩).

(٣) الرد على الدهريين (ص ٢٣) جمال الدين الأفغاني ترجمة الإمام محمد عبده، نشر الإسلام العالمية ١٩٨٣م.

ثانيًا: العلم الحديث ونقده لنظرية التطور:

بعد أن قدمنا وجهة النظر الإسلامية وهي من وجهة نظرنا كافية لإبطال نظرية التطور إلا أننا نريد أن نتبع وجهة النظر القرآنية بما انتهى إليه العلم من نتائج حول التطور.

ونحن حين نعرض وجهة النظر الحديثة فإنما نعرضها لأمرين:

الأول: إن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

الثاني: كما يقول أستاذنا الدكتور/ عبد الله الشاذلي: إن إبطال بعض الآراء العلمية بما يناقضها في نفس المجال، وبنفس المنهج العلمي ذاته يجعلها تتناقض، ويترتب على ذلك أن تتأرجح، وتسقط؛ ولأن بعض البشر يميلون إلى سماع آراء المعارضين وبالتالي فإن سماع وجهة النظر الغربية في بطلان القول بالتطور، لا يعد تدعيمًا لوجهة نظر القرآن وإنما هو اعتراف بالحقيقة التي أقرها القرآن الكريم [١].

وتتلخص وجهة النظر الغربية في نقد التطور في الآتي:

أولًا: إن هذه النظرية ظنية وليست قائمة على التجربة أو المشاهدة ونظرية التطور لم يلاحظها أحد أو جربها في معمله ؛ لأن ذلك ضرب من المستحيل، فهي نظرية معقدة فضلاً عن أنها تتعلق بماض سحيق جدًا موغل في القدم، ولذلك فإن أصحابها يتعاملون معها لا على أنها فرض علمي أو تجربة علمية ولكن على أنها عقيدة يقول السير آثر كيث: «**إن نظرية الارتقاء عقيدة أساسية في المذهب العقلي**» [٢].

وتعرف أيضًا في أحد المعاجم العلمية بأنها «**نظرية قائمة على تفسير بلا برهان**» [٣].

---

(١) انظر: المنهاج القرآني (ص ٧٧) بتصرف يسير.

(٢) الإسلام يتحدى (ص ٤٥).

(٣) المصدر السابق.

ثانيًا: لقد ألف مجموعة من العلماء كتابًا تحت عنوان «خلق لا تطور» وانتهوا فيه إلى أن:

أ- الجماد غير قادر على تحسين نفسه بل هو على الضد يميل إلى التجرد أو الاستقرار ولا فائدة قط من الاعتماد على طول الزمن لأن طول الزمن يؤدي إلى الانحلال والتفكك، ويسبب انقراض المعادن ، وتفتت الصخور، وعلى هذا فالزمن عامل رئيسي للهدم وليس للبناء ومن ثمَّ فالزمن هو العدو الأول للتطور، وليس سلاحًا يتسلح به التطور [١]، على ما يزعم التطوريون.

ب- هناك إجماع من العلماء المشتغلين بالأحياء على أن الحياة لا بد أن تأتي من الحياة وليس هذا فحسب، وإنما الإجماع منعقد على أن كل كائن حي يأتي بمثله ولذلك فإن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية بقاء الأصلح ولا يمكن أبدًا أن يفسر حدوث هذا الأصلح، وهذا ما جعل العلماء يذهبون إلى أن التطور هو أحد السنن الكونية والذي يحتاج إلى من يبدعه فهو إذن من خلق الله وصنعه.

إن كل ما يفعله الانتخاب الطبيعي هو أنه إحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة، والتكاثر بين الأنواع المختلفة أما الأنواع ذاتها التي يتم فيها الانتقاء فإنها تنشأ عن خطوات تخضع لقوانين تسير بعناية وتدبير ولا تخضع للصدفة العمياء [٢].

الإصرار على الكفر هو سبب تمسك الماديين بنظرية التطور

والسؤال الذي يطرح هنا إذا كانت نظرية التطور غير ثابتة علميًا فلماذا التمسك بها والإصرار عليها من جانب الماديين؟

---

(١) انظر: خلق لا تطور (ص ٣٦) بقلم: مجموعة من العلماء ترجمة: د/ إحسان حقي، دار النفائس ببيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣م.

(٢) خلق لا تطور (ص ٤٢)، الإسلام يتحدى (ص ٣١)، الله يتجلى في عصر العلم (ص ٣٩).

وإن تعجب فعجب قولهم إن العلماء الماديين يعترفون بأن النظرية ما هي إلا فروض لم تتحقق ولكن التخلي عن نظرية التطور ستجعلهم يؤمنون بخالق للكون وهم لا يريدون ذلك وبالتالي فهم يفضلون اتباع الظن على اتباع الحق هكذا يقولون.

يقول آرثر كيث: «**إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميًا ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه**» [١].

وهذه هي إرادة الإلحاد وهذا هو الكبر والتعصب للباطل فماذا يقال لهؤلاء من برهان وإقناع؟ ثم بماذا يناقشون؟ وقد عرفوا الحق وأعرضوا عنه.

* * *

(١) نقلاً عن الإسلام يتحدى (ص ٣٩).



الفصل الثاني

صفات الله تعالى وأسماؤه الحسنى

ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأول : أسماء الله الحسنى

المبحث الثاني : صفات الله سبحانه

المبحث الأول

أسماء الله الحسنى

أسماء الله عز وجل هي أعلام عليه، أخبرنا الله عز وجل بها في كتابه ووردت عن النبي ﷺ في أحاديثه، وهذه الأسماء أمرنا الله عز وجل أن ندعوه بها ونتقرب إليه بها، يقول سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف :١٨٠] .

يقول الرازي: «**الإلحاد في أسماء الله يقع على ثلاثة أوجه**:

الأول: إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله مثل تسمية الكفار أوثانهم بالآلهة، ومن ذلك أنهم سموا أصنامًا لهم باللات، والعزى والمناة، واشتقاق اللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان.

الثاني: أنهم سموا الله بما لا يجوز تسميته به مثل تسمية من سماه أبًا للمسيح وقول جمهور النصارى آب، وابن ، وروح قدس.

الثالث: أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ولا يتصور مسماه فإنه ربما كان مسماه أمرًا غير لائق بجلال الله» [١].

والأسماء جمع اسم همزته وصل وأصله مشتق من سموت ؛ لأنه تنويه ورفعة وهو من «السمو» والارتفاع والعلو [٢].

والحسنى جمع أحسن وهو أفعل تفضيل من الحسن وسميت الحسنى لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول [٣].

---

(١) التفسير الكبير (١٥/٧١- ٧٢).

(٢) مختار الصحاح (ص ٢٨٩).

(٣) الإيمان أركانه وحقيقته (ص ٢١).

وتوحيد الله في أسمائه يقتضي الإيمان بكل اسم سمى الله به نفسه أو أنزله في كتابه أو علمه أحدًا من خلقه أو استأثر به في علم الغيب عنده.

عدد الأسماء الحسنى:

وردت نصوص تثبت أن الله تعالى له تسعة وتسعين اسمًا ، من هذه الأحاديث ما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا فمن أحصاها دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر**» (١).

لكن هل الأسماء محصورة في هذا العدد؟

العلماء على رأيين: فريق يقول إن أسماء الله منحصرة في هذا العدد.

وفريق آخر يقول: إن الأسماء ليست منحصرة في هذا العدد، وحجتهم ما ورد عن النبي ﷺ: «**ما أصاب أحدًا همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله عنه همه وأبدله مكان همه فرحًا**»، قالوا: يا رسول الله ألا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: «**بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**» (٢).

وقد نقل النووي اتفاق العلماء على أن العدد غير محصور في هذه الأسماء ويكون معنى من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء، ومعنى إحصائها معرفتها وحفظها والإيمان بها وحسن المراعاة لها ودعاء الله بها. ويكون معنى الحديث: «من

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد (١٣/٣٧٧).

(٢) رواه أحمد وأبو عوانة في صحيحه قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

حفظها متفكرًا في مدلولاتها معتبرًا عاملًا بمقتضاها مقدسًا لمسماها دخل الجنة» [(١)].

وقد قال بعض العلماء: إنما خص التسعة والتسعين اسمًا لأنها أكثر الأسماء وأبينها معنى ولا يدل ذلك على الحصر، إن أكثر هذه الأسماء صفات وصفات الله تعالى غير متناهية [(٢)].

وأسماء الله الحسنى الواردة في القرآن هي:

١- أسماء الله بذاته تعالى وهي:

الواحد. الأحد. الحق. القدوس. الصمد. الغني. الأول. القيوم.

٢- أسماء متعلقة بالتكوين وهي:

الخالق. البارئ. المصور. البديع.

٣- أسماء متعلقة بصفتي الحب والرحمة فيما عدا رب ورحمن ورحيم:

وهي: الرءوف. الودود. اللطيف. الحليم. العفو. الشكور. المؤمن. البار. رفيع الدرجات. الرزاق. الوهاب. الواسع.

٤- أسماء متعلقة بعظمة الله وجلاله وهي:

العظيم. العزيز. العلي. المتعالي. القوي. القهار. الجبار. المتكبر. الكبير. الكريم. الحميد. المجيد. المتين. الظاهر. ذو الجلال والإكرام.

٥- أسماء متعلقة بعلمه تعالى وهي:

العليم. الحكيم. السميع. الخبير. البصير. الشهيد. الرقيب. الباطن. المهيمن.

* * *

---

(١) الإيمان أركانه وحقيقته (ص ٢٢)، وانظر: في العقيدة الإسلامية (ص ٣٨).

(٢) انظر: في العقيدة الإسلامية (ص ٣٩).

٦- أسماء متعلقة بقدرته تعالى وتدبيره للأمور وهي:

القادر. الوكيل. الولي. الحافظ. المالك. الملك. الفتاح. الحسيب. المنتقم. المقيت.

٧- وهناك أسماء أخرى لم تذكر بالنص في القرآن ولكنها استمدت من أفعال أو صفات له تعالى وردت بالقرآن وهي:

القابض. الباسط. الرافع. المعز. المذل. المجيب. الباعث. المحصي. المبدئ. المعيد. المحيي. المميت. مالك الملك. الجامع. المغني. المعطي. المانع. الهادي. الباقي. الوارث.

٨- وهناك أسماء أخرى له تعالى مستمدة من المعاني الواردة في القرآن الكريم وهي:

النور. الصبور. الرشيد. المقسط. الوالي. الجليل. العدل. الخافض. الواحد. المقدم. المؤخر. الضار. النافع (١).

اسم الله الأعظم

إذا كانت تلك الأسماء التي وردت وغيرها كثير نؤمن بها وإن لم نعرفها، فإن الرسول ﷺ ينبهنا على أن الله له اسم أعظم إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

١- عن بريدة رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوًا أحد، قال: فقال: «**والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى**» (٢).

---

(١) انظر: العقائد الإسلامية (ص ٢٧- ٢٨) للشيخ سيد سابق، الفتح للإعلام العربي.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال المنذري: قال شيخنا أبو الحسن المقدسي: إسناده لا مطعن فيه ولا أعلم أنه روي في هذا الباب أجود منه. وقال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث أرجح ما ورد في هذا الباب من حيث السند.

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ المسجد ورجل قد صلى وهو يدعو ويقول في دعائه: اللهم لا إله إلا الله أنت المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام، فقال النبي ﷺ: «**أتدرون بما دعا الله؟ دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى**»[(١)].

٣- وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة :١٦٣] ، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة :٢٥٥] »[(٢)].

يقول شارح الطحاوية: «**واعلم أن هذين الاسمين «الحي القيوم»** مذكوران في القرآن معًا وهما من أعظم أسماء الله الحسنى حتى قيل إنهما الاسم الأعظم فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه»[(٣)].

٤- وعن سعيد بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى؟ الدعوة التي دعا يونس حيث نادى في الظلمات الثلاث** ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء :٨٧] ». فقال رجل: يا رسول الله هل كان ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ألا تسمع قول الله عز وجل**: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء :٨٨] »[(٤)].

هذه الأحاديث في جملتها تبين أن لله تعالى أسماء حُسنى لها منزلة خاصة عنده سبحانه إذا سأل المؤمن ربه بها استجاب له، هكذا أخبر ﷺ، أما ما يزعمه البعض أن لبعض الأسماء خواص، يحصل بها العجائب والخوارق، وأن لكل اسم من أسمائه خادمًا روحانيًا يخدم من يواظب على الذكر به، لا شك

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) شرح الطحاوية (ص ٧٧).

(٤) رواه الحاكم وانظر مختصر ابن كثير للصابوني (ص ٥١٩).

أن هذا أمر زائد على ما ورد عن رسول الله وأن القائلين بذلك مولعون بادعاء الخصوصيات والزيادة على المأثور، والصحيح أن الله اختار من أسمائه ما كشفه لنا لتكون وسيلة نتعرف بها عليه وأن الإنسان إذا واظب على ذكر الله بها طهرت نفسه وصفت روحه خاصة إن كان حاضر القلب فاهم المعنى، أما ما سوى ذلك فهو غلو قد نهى الشرع عنه وحسبنا الاقتصار على ما ورد في الشرع [١].

* * *

(١) انظر: هامش العقائد الإسلامية (ص ٢٩)، والأسماء والصفات (ص ٣٥) د/ يحيى ربيع.

المبحث الثاني

صفات الله سبحانه

مر بنا بعض الأدلة على وجود الله تعالى وكل موجود لا بد له من صفات يتصف بها، وما دام الله موجودًا فإنه لا بد وأن يتصف بصفات كمال تليق به سبحانه وتعالى ويجب أن ينزه الله تعالى عن صفات النقص التي لا تليق بالخالق المبدع الذي أحسن كل شيء خلقه، ولقد وصف الله تعالى نفسه بصفات في القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۭ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى :١١] .

والذي يعتقد في صفات الله سبحانه أن الله لا يشبه أحدًا من خلقه ولا يشابهه أحد وما أطلقه الله على نفسه أو على خلقه لا يدل على التشابه بينهما في المعنى الحقيقي إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق.

والواجب على المؤمن في باب إثبات الصفات لله تعالى:

أولًا: تنزيه الله عز وجل عن مشابهة خلقه وعن أي نقص.

ثانيًا: الإيمان بالأسماء والصفات الواردة في القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ بلا زيادة ولا نقصان، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

ثالثًا: قطع الطمع عن إدراك هذه الصفات [١].

يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «**لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله** ﷺ بما لا يتجاوز القرآن والحديث» [٢].

---

(١) الإيمان والحقيقة وأركانه (ص ١٦).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص ٢١) الشيخ محمد خليل هراس.

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري: **«من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل»**.

ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها ؛ لأن صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفات نقص ولا يجوز أن يكون قد حدث له الكمال بعد أن كان متصفًا بضده ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير والإحياء والإماتة والقبض والبسط والطي والاستواء والإتيان والمجيء والنزول والغضب والرضا ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا [١]، هذا هو الاعتقاد الذي يجب على المؤمن أن يعتقده في صفات الله سبحانه وتعالى.

ولا عبرة لما ذهب إليه «ابن حزم» من أنه لا يجوز أن نطلق لفظ الصفات على الله سبحانه وتعالى، ويشتط ابن حزم في نفي لفظ الصفات على الله، زاعمًا أن ذلك محال، يقول:

«وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى فمحال لا يجوز ؛ لأن الله تعالى لم ينص قط في كلامه المنزل على لفظ الصفات ولا على لفظ الصفة، ولا حفظ عن النبي ﷺ بأن لله تعالى صفة أو صفات نعم ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولا عن أحد من خيار التابعين ومن كان هكذا فلا يحل لأحد أن ينطق به، فلا يجوز القول بلفظ الصفات ولا اعتقاده بل هي بدعة منكرة [٢]، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن

(١) شرح الطحاوية (ص ٧٩- ٨٠).
(٢) الفصل (٢/٩٥).

رَبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم :٢٣] .

ثم يقول بأن الذي اخترع لفظ الصفات «**المعتزلة وهشام ونظراؤه من رؤساء الرافضة وسلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام سلكوا غير مسلك السلف الصالح ليس فيهم أسوة ولا قدوة وحسبنا الله ونعم الوكيل**» (١).

هذا ما زعمه «ابن حزم» مخالفًا به إجماع المسلمين، ويمكن الرد على ابن حزم بالآتي:

أولًا: أن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم أسماء وأخبر عن هذه الأسماء بمصادرها والإخبار عن الاسم بالمصدر دليل على أن لهذه الأسماء معان وأوصافًا، ولو لم يشتمل على معان وأوصاف لما أخبر الله عنها بمصادرها، بل إن الله عز وجل أثبت لنفسه تلك المصادر ووصف نفسه بها.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات :٥٨]، فالقوة هنا مصدر ووصف أخذ منه اسم القوي ، ويقول تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر :١٠] ، هنا يثبت الله لنفسه وصف العزة ويشتق منه اسم العزيز، ويقول تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء :١٦٦]، ويقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة :٢٥٥]، ويشتق منه اسم العليم، ويقول سبحانه: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف :١٤٤] ، وهو وصف اشتق منه اسم المتكلم، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف :٥٨] .

وهكذا في أسماء الله كلها حيث إنها أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وصفات باعتبار ما دلت عليه من المعاني، والقرآن دل على ذلك كما بينا، وقد أجمع أهل اللغة والعرف على أنه لا يقال عليم إلا لمن له علم، ولا سميع إلا لمن له سمع، ولا بصير إلا لمن له بصر، وهذا أمر أبين من أن يحتاج إلى دليل (٢).

---

(١) الفصل (٢/٩٥).

(٢) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ ابن عثيمين نقلاً عن: في الأسماء والصفات (ص ٤١) حولية أصول الدين ١٩٩٣م.

ثانيًا: ورد في السنة أحاديث عن رسول الله ﷺ يثبت فيها الله عز وجل السمع والقدرة والعلم وغيرها من صفات الله تعالى.

يقول ﷺ: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**» وفي حديث الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك**»، فالرسول ﷺ يثبت لله عز وجل السمع والعلم والقدرة وهي من الصفات التي وصف بها الله سبحانه وتعالى.

ثالثًا: أئمة الإسلام اجتمعوا على إثبات الصفات لله سبحانه على أدلة منها أن فقهاء المدينة وهم السبعة من خيرة التابعين عرفوا ربهم بصفاته كما نطق بها الكتاب وشهد بها رسول الله ﷺ على حد رواية أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (١).

يقول الشهرستاني: «**اعلم أن جماعة كبيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى الجلال والإكرام والجود والإنعام ، والعزة والعظمة ولا يفرقون بين الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقًا واحدًا، ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات، والسلف يثبتون، سُمي السلف صفاتية والمعتزلة معطلة**» (٢).

ويقول مطرف: «**الحمد لله الذي من الإيمان به الجهل بغير ما وصف به نفسه**».

وسفيان بن عيينة يقول: «**كل ما يوصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسير**».

وهو يقصد والله أعلم أن اللفظ يبقى على ظاهره ونؤمن به كما ورد وقد وردت عبارة: «**كل ما يصف الله به نفسه**» كثيرًا على لسان الإمام مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وغيرهم (٣).

رابعًا: يذكر ابن القيم أن الأسماء لو لم تشتمل على معان وصفات لما صح أن يخبر عنها بأفعال فلا يقال يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد لأن ثبوت

---

(١) انظر: ابن قدامة رسالة ذم التأويل (ص ٧١) وما بعدها نقلاً عن «**في الأسماء والصفات**» (ص ٤٢).

(٢) الملل والنحل بهامش الفصل (١/٩٥)، طبعة السلام العالمية.

(٣) انظر أستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٨٢).

أحكام الصفات فرع ثبوتها على أصل إثبات الصفة فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوتها [(١)].

بعد هذه الحجج الدامغة والنصوص الصريحة الواضحة يظهر بطلان ما ذهب إليه ابن حزم من نفيه للصفات، ووصفه - بغير حق - لمن يقول بها بالمبتدع، نعم قد يكون هناك بعض المبتدعة الذين أضافوا صفات لله لم ترد بنصها ولا بمعناها أو يكون هناك بعض المبتدعة كالمجسمة والمشبهة، والمعطلة.. لكن من يطلق فقط لفظ الصفات على الله ، كما وردت لا ينبغي أن يقال عنه مبتدع والأولى أن نقول إنه متبع واقف عند نصوص الكتاب والسنة.

الصفات وأقسامها:

قام العلماء بتقسيم الصفات تسهيلاً للدارسين، بعد إجماعهم على أنه يجب لله كل كمال يليق بذاته المقدسة ويستحيل عليه كل نقص، لا يليق بذاته سبحانه.

أما تفصيلاً فقد ذكروا ثلاث عشرة صفة وقسموها ثلاثة أقسام:

الأول: صفة نفسية واحدة: وهي صفة الوجود.

الثاني: صفات سلبية وهي خمس:

١- الوحدانية.

٢- الأول.

٣- الآخر.

٤- المخالفة للحوادث.

٥- القيام بالنفس.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/٢٨- ٣٠) وراجع بحث الدكتور يحيى ربيع: في الأسماء والصفات «**حولية أصول الدين**» ١٩٩٣م.

الثالث: صفات المعاني: وهي القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام [١].

والبعض يقسم الصفات إلى صفات ذات وهي الصفات السابقة وبالجملة هي كل كمال يليق به سبحانه وصفات فعل نحو: الرزق والإماتة والإحياء والغضب والسخط وغيرها.

١- صفة الوجود:

تعرف بأنها صفة نفسية ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها، ومعنى صفة نفسية ثبوتية أنها نسبت للنفس - أي الذات - لأنه لا تتعقل إلا بها فلا تتعقل نفس إلا بوجودها [٢].

والدليل على وجوب الوجود لله: أن الله يجب افتقار العالم إليه وكل من وجب افتقار العالم إليه فهو واجب الوجود [٣].

وقد ذكرنا الأدلة المتنوعة عند إثبات وجود الله، عند مناقشة شبهات المنكرين للألوهية، فليرجع هناك.

٢- الصفات السلبية:

وهي صفات تنفي عن الله معنى لا يليق بذاته سبحانه وتعالى، وسميت سلبية لأنها نفت عن الله أمرًا وجوديًّا للذات الإلهية، فعندما نقول الله تعالى هو الأول، فإن لفظ الأول لم يضف للذات الإلهية وصفًا وجوديًّا كالقدرة والإرادة وإنما يفهم منه فقط أن الله تعالى ليس بحادث [٤]، والآخرية تسلب

---

(١) انظر: دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ٤٥).

(٢) شرح جوهرة التوحيد (ص ٦٣).

(٣) المصدر السابق (ص ٦١).

(٤) انظر: في العقيدة الإسلامية (ص ٢٨) لأستاذنا الدكتور عوض الله حجازي، وانظر: دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ٤٩) للدكتور يحيى ربيع.

أخرية الوجود والوحدانية تسلب التعدد والمخالفة للحوادث تسلب المماثلة لها والقيام بالنفس وتسلب الافتقار إلى الغير [١].

وليس المقصود من ذكر هذه الصفات الخمس أنها محصورة في هذا العدد فالله منزه عن الولد والصاحبة والجسمية ولكن بنظرة فاحصة سترى مثل هذا عائدًا إلى هذه الصفات الخمس، فالعدد ليس على سبيل الحصر ولكن على أساس أنها أمهات وأصول [٢] لغيرها من الصفات الواجبة له سبحانه.

أولاً: الوحدانية:

هي أشرف الصفات ولذلك سُمي بها علم التوحيد. وكثر التنبيه والثناء عليها في الآيات القرآنية.

فالله واحد في ذاته: بمعنى أن ذاته لا تشبه شيئًا ولا يشبهها شيء، والله واحد في صفاته بمعنى أن صفاته من العلم والقدرة والإرادة وغيرها لا يشاركه فيها أحد من خلقه.

والله واحد في أفعاله: بمعنى أن أفعاله خاصة به وليس لأي مخلوق أن يُوجِد مِثْل فعله لا خلقًا ولا عدمًا ولا تدبيرًا، فهذه الأمور كلها لله، ومن يعتقد أن أحدًا يشارك الله في ذاته أو صفاته أو أفعاله فهو كافر ومشرك [٣].

والوحدانية تعني توحيد الألوهية الذي يعني أن الله وحده هو المستحق للعبادة لا شريك له.

وتوحيد الربوبية أن الله وحده خالق كل شيء.

وتوحيد الصفات بمعنى أن الله لا يشبهه أحد من خلقه.

---

(١) في الأسماء والصفات (ص ٥٩).

(٢) المصدر السابق (٦٠).

(٣) في العقيدة الإسلامية (ص ٢٨)، وانظر: جوهرة التوحيد (ص ٦٧) والدين الخالص (ص ٩، ١٠).

وقد جاءت الأنبياء والرسل بهذا التوحيد بأنواعه فهو أول دعوة للرسل وأول منازل الطريق وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى [(١)].

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون :٢٣] .

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف :٥٩] .

وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف :٥٩].

وبالجملة قال الله تعالى للناس على لسان جميع الرسل: اعبدوا الله، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل :٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥].

وقد تضمنت سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص :١-٤] ، عدة أمور: منها:

١- إثبات ألوهية الله تعالى المستلزمة لاتصافه بكل صفات الكمال كالعلم والقدرة والإرادة.

٢- إثبات أحديته الموجبة تنزيهه تعالى عن التعدد والتركيب وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتجزؤ والمشاركة في الخلقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة.

---

(١) انظر العقيدة الطحاوية (ص ٢٦).

٣- إثبات صمديته تعالى المقتضية استغناءه عن كل ما سواه وافتقار كل ما عداه إليه في الوجود وسائر الأحوال.

٤- إبطال زعم من زعم أن له ولدًا كاليهود والنصارى بقوله: «لم يلد» لأن الولد من جنس أبيه والله لا يجانسه أحد ولا يجانس أحدًا ولا يفتقر إلى من يعينه أو يخلفه لامتناع احتياجه وفنائه.

٥- إثبات أوليته بقوله: «لم يلد» أي لم يفصل عن غيره وهذا لا نزاع فيه وإنما ذكر لتقرير ما قبله إذ المعهود أن ما لا يولد لا يلد.

٦- نفي مماثلة شيء له تعالى في أي زمان كان لأن ما لا يوجد في الماضي لا يكون في الحال. ضرورة أن الحادث لا يكون كفئًا للقديم [(١)].

وسورة الإخلاص هي سورة الوحدانية، ولذلك تعدل ثلث القرآن كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

ومن الأدلة التي يستدل بها على الوحدانية ويعول عليها كثير من العلماء قول الله سبحانه: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء :٢٢]، وهو ما يسمى بدليل التمانع وهو وإن كان نصيًّا إلا أن فحواه عقلي.

يقولون: لو وجد إلهان لما وجد شيء من العالم لكن عدم وجود شيء من العالم باطل بالمشاهدة إذًا يبطل وجود إلهين، وإذا بطل وجود إلهين ثبت نقيضه وهو وجود إله واحد، وإنما لزم من وجود الإلهين عدم وجود العالم لأنه لو وجد إلهان متساويان في القدرة والإرادة لحصل الخلاف بينهما بالضرورة، فإن أراد أحدهما وجود العالم وأراد الآخر عدمه فلا بد حينئذ أن يتحقق فرض من فروض ثلاثة لا رابع لها:

الأول: إما أن ينفذ مرادهما فيجتمع الضدان.

---

(١) الدين الخالص (ص ١٠- ١١).

الثاني: وإما أن لا ينفذ مرادهما فيلزم عجزهما.

الثالث: وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، وعلى تقدير حصول كل فرض من الثلاثة يحصل المحال، وما أدى إلى المحال يكون محالاً وإذا بطل التعدد في الآلهة ثبتت الوحدانية [(١)].

وقد نقد دليل التمانع عند المتكلمين «الآمدي» في غاية المراد «وابن رشد» في منهاج الأدلة يقول: «**أما ما تتكلفه الأشعرية من الدليل الذي يُسمى بالممانعة فشيء ليس يجري مجرى الأدلة الطبيعية والشرعية؛ لأنه من الناحية الشرعية لا يقدر الجمهور على فهمه فضلًا عن أن يقع لهم به إقناع، وأما أنه ليس يجري مجرى الأدلة الطبيعية فلأنهم قسموا الآية ثلاثة أقسام وليس في الآية تقسيم**» [(٢)].

مستلزمات التوحيد:

بعد أن عرضنا أهمية التوحيد وأنه دعوة جميع الأنبياء والمرسلين نخلص إلى:

ما الذي يلزم المؤمن الموحد بعد أن أيقن بهذه العقيدة؟

١-وجوب إخلاص المحبة لله عز وجل فلا يتخذ العبد ندًّا لله في الحب يحبه كما يحب الله أو يقدمه في المحبة على حب الله عز وجل، فمن فعل ذلك كان من المشركين، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة :١٦٥].

٢-وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى في الدعاء والتوكل والرجاء فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى، يقول عز وجل: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس :١٠٦]، وقال تعالى:

---

(١) دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ٤٩- ٥٠)، وانظر جوهرة التوحيد (ص ٦٨، ٦٩)، وانظر شرح التفتازاني على العقائد النسفية (ص ٦٣- ٦٣).

(٢) منهاج الأدلة (ص ١٥٧- ١٥٨).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة :٢٣].

٣-وجوب إفراد الله تعالى بالخوف منه فمن اعتقد أن بعض المخلوقات تضره بمشيئتها وقدرتها فخاف منها فقد أشرك بالله لقوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل :٥١] ، ولقوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس :١٠٧].

وهنا يجب أن نفرق بين خوف العبادة الذي ينبغي أن يكون لله، وهذا هو المعول عليه في الدين، أما الخوف الفطري الغريزي فهذا لا شيء فيه كمن يرى ثعبانًا فيخاف أو حيوانًا مفترسًا أو الخوف عند إشهار السلاح، فهذا من الخوف الفطري الذي فطر الله الناس عليه.

٤-من مستلزمات التوحيد وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بجميع أنواع العبادات البدنية من صلاة وركوع وسجود، وصوم وذبح وطواف وجميع العبادات فيجب أن تكون لله وحده (١).

٢- صفة **الأول** «القدم»:

ومعنى الأول: أن الله لم يسبقه عدم وكون الله هو الأول ينفي عنه سبحانه وتعالى الحدوث.

والدليل على كون الله هو الأول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد :٣] .

وقال ﷺ فيما رواه البخاري عن عمران بن حصين: «**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء**» (٢).

---

(١) انظر: الإيمان حقيقته وأركانه (ص ١٤- ١٥).

(٢) صحيح البخاري، باب: وكان عرشه على الماء (٩/ ١٥٠).

في هذا الحديث يبين النبي ﷺ أن جميع الموجودات سوى الله محدثة أما الدليل العقلي فيمكن صياغته كالتالي: ثبت أن موجد العالم هو الله وهو واجب الوجود لذاته؛ لأنه لو لم يكن هو الأول [(١)]، لكان حادثًا ولأدى ذلك إلى المحال وكل ما أدى إلى المحال فهو محال.

٣-صفة الآخر «البقاء»:

فمعنى الآخر عدم آخرية الوجود لله تعالى أي ليس لوجوده نهاية فلا يكون فانيًا، فالآخر ينفي عن الله تعالى الفناء فهو أمر لا يليق بذاته سبحانه وتعالى.

والدليل على صفة البقاء: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن :٢٧]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد :٣] .

٤-المخالفة للحوادث:

ومعنى هذه الصفة أن الله مخالف لجميع الكائنات في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد :٣] وغيره له بداية ويلحقه العدم، والآية الجامعة في هذا الشأن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى :١١] .

٥-القيام بالنفس:

ومعنى تلك الصفة أنه غني عن العالمين والجميع محتاج إليه، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر :١٥]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد :٣٨]، فالله غني عن عباده وهم فقراء إليه؛ لأنه سبحانه لو احتاج إلى شيء لكان حادثًا وحدوثه محال،

---

(١) آثرت أن أستخدم الأول بدلاً من القديم لأن التعبير بالأول هو تعبير القرآن الكريم، وقد أنكر كثير من السلف والخلف إطلاق لفظ القديم على الله؛ لأن الشرع جاء باسمه الأول وهو أحسن من القديم؛ لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم والله تعالى له الأسماء الحسنى. انظر شرح الطحاوية (ص ٦٧- ٦٨).

وبالتالي فاحتياجه محال [١].

ثانيًا: صفات المعاني أو الصفات الوجودية:

يطلق عليها وجودية ؛ لأنها موجودة متحققة فيه تعالى، ويطلق عليها صفات المعاني أو الصفات الثبوتية وذلك لأنها تدل على معنى زائد على الذات أو يجب إثباتها في حقه تعالى ويقوم إثباتها في حقه من وجهين:

الأول: اقتضاء كماله لها.

الثاني: دلالة أفعاله عليها [٢].

أ-صفة القدرة:

هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة [٣].

ومعنى كونها قديمة ؛ لأن الله تعالى لا يوصف بالحوادث ومعنى قائمة بذاته، أن الصفة لا قيام لها بنفسها فلا بد من ذات تقوم بها ويتأتى بسببها ؛ لأن الله هو الفاعل على الحقيقة.

أما تعلقها فهي لا تتعلق إلا بالممكن- أي الشيء الذي يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى- فهي لا تتعلق بالواجب ؛ لأنها لا يصح أن تعدمه ؛ لأنه لا يقبل العدم ولا يصح أن توجده؛ لأنه موجود بالفعل، فيكون كتحصيل الحاصل، ولا تتعلق بالمستحيل ؛ لأن المستحيل لا وجود له، وهو عدم، ككون الابن أكبر من أبيه، والجزء أكبر من الكل، وكوجود الشريك والصاحبة والولد. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

* * *

(١) الدين الخالص (ص ٩).

(٢) انظر: في الأسماء والصفات (ص ٦٠).

(٣) جوهرة التوحيد (ص ٧٢).

ب-الإرادة:

وهي صفة قديمة زائدة على الذات قائمة بها تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه فتجعله طويلاً أو قصيرًا حسنًا أو قبيحًا عالمًا أو جاهلاً في هذا المكان أو في غيره وهو سبحانه يتصرف في ملكه حسب مشيئته وإرادته وحكمته (١).

والدليل عليها: قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود :١٠٧] ، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص :٦٨]، وقوله: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة :٦] ، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء :٢٦-٢٧].

وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل :٤٠].

هذه جملة آيات تثبت أن الله فعال لما يريد وأنه لا راد لأمر الله.

تعلق الإرادة:

تتعلق الإرادة بالممكنات مثل صفة القدرة، غير أن الفرق بين تعلق القدرة والإرادة أن القدرة تعلق إيجاد وإعدام، أما الإرادة فهي تعلق تخصص، فإذا تعلقت القدرة بإيجاد إنسان مثلاً فالقدرة صالحة ؛ لأن توجده طويلاً أو قصيرًا أبيضًا أو أسود، ولكن إرادة الله تعالى هي التي تخصص هذا الإنسان بصفته كالطول بدل القصر والبياض بدل السواد وفي الزمن المعين بدل غيره من الأزمنة فعملها يسبق عمل القدرة ويلي عمل العلم بالنسبة للممكنات (٢).

---

(١) انظر: جوهرة التوحيد (ص ٧٤)، والعقائد الإسلامية (ص ٥٩) للشيخ سيد سابق.

(٢) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ٥٦- ٥٧).

إرادة الله للخير والشر:

إجماع أهل السنة والجماعة على أن الله يريد جميع الأشياء، خيرها وشرها؛ لأن ما نحسبه خيرًا قد يكون هو الشر بعينه، وما نراه شرًّا، قد يكون هو الخير الذي ما بعده خير، وحسبنا قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة :٢١٦]، وإنما ينسب الخير لله والشر للإنسان تأدبًا وإن كان الكل من عند الله.

نقرر هذا لأن المعتزلة يقولون بأن الله لا يريد الشر، وهم يريدون بذلك تنزيه الله عن فعل الشرور ولكن أدى بهم هذا إلى نسبة العجز إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن على مذهبهم الله لا يريد الكفر، والكفر قد وقع بالفعل من الكافر، فيلزم من ذلك: أن يقع في ملك الله ما لا يريده، فكأنهم أرادوا أن ينزهوا الله فوقعوا من حيث لا يشعرون إلى وصفه بالعجز «**فقد وقف أعرابي على حلقة فيها (عمرو بن عبيد) فقال الأعرابي: يا هؤلاء إن ناقتي سُرقت فادعوا الله أن يردها عليَّ، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت فارددها عليه. فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك، قال: ولم؟ قال: أخاف كما أراد أن لا تُسرق فسُرقت أن يريد ردها فلا يردها**»[1].

الفرق بين الإرادة والأمر والمحبة والرضا:

هناك فرق بين إرادة الشيء والأمر به.

١-فقد يريد الله عز وجل شيئًا ويأمر به، كإيمان المؤمنين الذين علم الله عنهم الإيمان، فأراد الإيمان وأمرهم به كالصحابة وغيرهم من المؤمنين الذين ماتوا على ذلك.

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٧).

٢-وقد لا يريد ولا يأمر، فالله عز وجل لا يريد الكفر، ولا يأمر به قبل وقوعه.

٣-وقد يريد ولا يأمر كالكفر الواقع بالفعل بمن كفر، وكالمعاصي فإنه أرادها ولم يأمر بها (١).

ولا نقول كيف يريد شيئًا ولا يأمر به؟ نقول: إن الله لا يأمر بالكفر ولا بالفحشاء ولكن وقوعها من الكافر والفاسق، يريده الله؛ لأنه لا يقع في ملك الله ما لا يريده ولو قلنا إن الله لا يريد الكفر الحاصل من الكافر والفسق الواقع من العاصي يكون قد وقع في ملك الله ما لا يريده وهذا لا يقول به مؤمن.

٤-وقد يأمر بالشيء ولا يريده لحكمة يعلمها عز وجل أحيانًا يظهرها وأحيانًا يخفيها سبحانه وتعالى كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة :٤٦].

فقد أخبرنا سبحانه بالمفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة :٤٧] أي فسادًا وشرًّا ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ [التوبة :٤٧] أي سعوا بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة :٤٧] أي قابلون منهم مستجيبون لهم فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه (٢).

بهذا التوفيق يزول ما يوهم التعارض بين إرادة الله وأمره ورضاه ومحبته.

صفة العلم

صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات تعلق إحاطة وانكشاف وإحاطة دون سبق خفاء أو جهل.

---

(١) جوهرة التوحيد (ص ٧٥- ٧٦).

(٢) شرح الطحاوية (ص ٢٣٣- ٢٣٤).

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال :٧٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس :٦١]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك :١٤].

وهذه الآية تنكر على الذين يقرون بخلق الله للعالم ثم ينكرون علمه بالأشياء فمن البديهي أن يعلم الخالق خلقه، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام :٥٩]، وهذه الآية تدل على شمول علم الله وإحاطته على وجه التفصيل.

أما الدليل العقلي فيصاغ هكذا: إن فعل الله متقن وكل من كان فعله متقن فهو عالم، فإن من نظر في الآفاق وتأمل ارتباطات العلويات بالسفليات سيما في الحيوانات وما هديت إليه من مصالحها وأعطيت من الآلات المناسبة لها، يجزم أن الذي فعل ذلك عالم، وعلم الله لا يوصف بأنه ضروري أو نظري أو بدهي أو تصوري أو تصديقي؛ لأنه صفة قديمة لا تعدد فيها ولا تكثر [(١)].

وقد أنكر معبد الجهني ومن تبعه علم الله للأشياء إلا بعد حدوثها، وأن الأمر مستأنف بعلم حادث وقدرة وإرادة وقد تبرأ منه عبد الله بن عمر ومن أصحابه، كما أنه من الأمور التي كُفِّر بها الفلاسفة إنكارهم علم الله تعالى بالجزئيات حيث يقصرون علمه على الكليات، أما تفاصيل الأمور ودقائقها فلا يقرون علم الله بها [(٢)].

* * *

---

(١) انظر: المواقف (ص ٢٨٥)، والدين الخالص (ص ١٢)، وانظر العقيدة الطحاوية (ص ٩٩).

(٢) انظر: جوهرة التوحيد (ص ٧٧)،وانظر: في الأسماء والصفات (ص٦٦).

صفة الحياة

صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى تصحح اتصاف الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة وهي صفة لا تعلق لها. والدليل عليها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة :٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان :٥٨]، ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر :٦٥].

فالله سبحانه هو الحي والحياة هي الصفة التي تصحح لموصوفها الاتصاف بالقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر فلو لم يكن حيًّا ما ثبتت له هذه الصفات وحياة الله كاملة ليس هناك أكمل منها ولا يُكْتَنَه كنهها وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ولا يُقْضى عليها بالفناء والعلم لا يصدر إلا من حي ، سبحانه وتعالى [(١)].

صفة السمع

صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمسموعات تعلق انكشاف فهي تكشف لله تعالى المسموعات وهي الأصوات والكلام، والدليل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج :٧٥]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه :٤٦]، ويقول عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر :٢٠].

فالله سبحانه سميع يسمع كل شيء حتى إنه ليسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء دون أن يشغله سماعه جماعة عن سماعه جماعة آخرين.

* * *

(١) العقائد الإسلامية (ص ٦٠- ٦١).

صفة البصر

صفة أزلية قائمة بذاته تتعلق بالموجودات وغيرها [(١)]. والدليل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء :١] .

وقوله سبحانه: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف :٢٦] .

وفي الحديث: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والله عز وجل السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو الجدير بالعبادة والتوبة والقصد أما غيره فلا يستحق العبادة يقول تعالى على لسان سيدنا إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم :٤٢] .

صفة الكلام

صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت فدل على الواجبات والجائزات والمستحيلات [(٢)]، ويكون الأمر والنهي والخبر والوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته سبحانه وتعالى [(٣)].

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء :١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف :١٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى :٥١] .

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف :١٠٩] .

وقد نفت المعتزلة كلام الله، وكما ينقل شارح الطحاوية أن بعض المعتزلة

---

(١) جوهرة التوحيد (ص ٨٤).

(٢) جوهرة التوحيد (ص ٨١)، ودراسات في العقيدة الإسلامية (ص ٥٨- ٥٩).

(٣) الأربعين في أصول الدين (ص ٢٧).

قال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريد أن تقرأ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ [النساء :١٦٤] بنصب الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله، فقال له أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية هكذا فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف :١٤٣]، فبهت المعتزلي.

يقول شارح الطحاوية: وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكلم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم قال عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس :٥٨].

فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا أبصارهم فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة وهو قول الله تعالى**: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس :٥٨] فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم وتبقى بركته ونوره».

ففي هذا الحديث إثبات صفة الكلام وإثبات الرؤية وإثبات العلو. وقال البخاري في صحيحه: باب: كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة وساق فيه عدة أحاديث فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضله الذي ما طابت لأهلها إلا به [(١)].

صفات الذات وصفات الفعل

ما مر من إثبات للصفات إنما هي صفات الذات بمعنى أنها صفات قائمة بالله تعالى، وهناك صفات فعل كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والغضب والفرح وغيرها من صفات الفعل، ويقول صاحب الطحاوية: «**ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته كما كان بصفاته أزليًا**

---

(١) شرح الطحاوية (ص ١٣٠- ١٣١).

كذلك لا يزال عليها أبديًا» (١).

ويقول ابن العز في شرح النص السابق: أي أن الله تعالى لم يزل متصفًا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها؛ لأن صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفة نقص ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفًا بضده ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير والإحياء والإماتة والقبض والبسط والطي والاستواء والإتيان والمجيء والنزول والغضب والرضا ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا (٢).

ولكن أصل معناه معلوم لنا كما قال الإمام مالك رضي الله عنه لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف :٥٤] كيف استوى؟ فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة: «**إن ربي غضب اليوم غضبًا شديدًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله**»؛ لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلمًا بالأمس لا يقال إنه حدث له الكلام فالساكت بغير آفة يُسمى متكلمًا بالقوة بمعنى أنه يتكلم إذا شاء وفي حال تكلمه يسمى متكلمًا بالفعل (٣).

«**وهذا الفهم هو الذي يميز صفات الله عن صفات البشر ولذلك كان المنهج السلفي في تناول قضية الصفات الإلهية هو المنهج الأمثل وقاعدته المشهورة تقر أن نثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ** ومن غير تشبيه أو تمثيل ولا تأويل ولا

(١) المصدر السابق (ص ٧٩).
(٢) المصدر السابق (ص٧٩- ٨٠).
(٣) شرح الطحاوية (ص ٨٠).

تعطيل وبهذه القاعدة تنحل جميع المشاكل التي تصورها غير السلف من الفرق الأخرى»[(١)].

واجب المسلم تجاه الصفات:

إن المسلم يجب أن يتجاوز الدراسة الشكلية للصفات التي كان المتكلمون يشمرون ساعد الجد في دراستها مثل هل الصفات هي عين الذات أو زائدة على الذات؟ إلى غير ذلك من المسائل الجدلية.

أقول: إن المسلم عليه أن يستفيد وأن يستلهم روح الصفات الإلهية ويحاول أن يسير على هديها ويستنير بها وأن تكون هي المثل الأعلى الذي يضعه الإنسان نصب عينيه ليصل إليه عبادة وسلوكًا وورعًا وتقوى، إن الصفات الإلهية يجب أن تخلق فينا التوثب والعمل المستمر والسعي الدءوب نحو الاكتمال في حدود الطاقة البشرية إنها يجب أن تسير بالإنسان نحو مقام العبودية التامة لله رب العالمين، ذلك الإطار الذي جعله الله حصنًا لا يستطيع إبليس أن يخترقه حتى يوسوس للإنسان أو يغويه عن صراط الله المستقيم، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر :٤٢][(٢)].

ماذا لو استشعر الإنسان معنى القدرة، فعلم أن الله قادر على كل شيء وأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن ما يلوح أمام الناس من طغيان وتكبر وتجبر وظلم وعدوان وبغي في الأرض بغير الحق، الله بقدرته وجبروته قادر على تدمير أصحاب تلك القوة المزعومة، فانظر إلى السكينة والاطمئنان وكيف يشعر بهما الإنسان وهو يعلم أن الله قادر على كل شيء، وماذا يمكن أن تعدل صفة القدرة، من ظلم الإنسان لغيره، إذا أيقن أن الله قادر على كل شيء.

---

(١) انظر: أصول العقيدة الإسلامية (ص ١١٣- ١١٤).

(٢) سورة الحجر الآية: ٤٢، وانظر: أصول العقيدة الإسلامية (ص ١٢٢- ١٢٣) لأستاذنا الدكتور محمد نصار.

ولنقل مثل هذا في صفة العلم، حين يعيش الإنسان مؤمنًا موقنًا أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا وأن علم الله لا نهاية له ولا حدود أيمكن بداية أن يعصي الله وهو موقن أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ أيمكن أن يغتر بعلمه بعد أن تظهر له بعض الأسرار في كون الله؟ إن الإنسان إذا ركب متن الغرور في أمر من الأمور ثم استشعر صفات الله علم أن الله أقوى وأغنى وأعدل وأعلم وهكذا، أي أن تلك الصفات يجب أن تكون أعلامًا هادية للإنسان في حركاته وسكناته يستلهم الإنسان منها - وباستمرار - الوصول إلى الخير الأسمى في علاقة الإنسان بربه وفي علاقته بالمجتمع، لنأخذ مثلاً صفة الرحمة التي تعني الرفق واللين وعدم الشدة وهي المدخل الطبيعي إلى الروابط الاجتماعية، ولما كان الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع مترابط متماسك فإن لحمة هذا المجتمع وسداه تتحقق بالرحمة فإذا استلهم المؤمن هذه الصفة الإلهية فأي أثر يمكن أن يعود بعد ذلك؟ إن المجتمع الذي لا تسوده الرحمة متقطع الأوصال متهدم البنيان متداع غير متماسك [١].

بين السلف والخلف في النصوص الموهمة للتشبيه

وردت بعض الآيات والأحاديث يوهم ظاهرها التشبيه مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح :١٠] .

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه :٥].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام :١٨] .

وقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر :٢٢] .

وقوله جل وعلا: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود :٣٧].

وقول الرسول ﷺ: **«إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها حيث شاء»** [٢]. وحديث: **«ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا»**.

---

(١) نفسه وانظر: العقائد الإسلامية (ص ٦٤- ٦٥).

(٢) جامع الأحاديث للسيوطي (٢/٢٣٥).

فهذه مجمل الآيات والأحاديث التي يوهم ظاهرها التشبيه. وللعلماء مسالك تجاه هذه الآيات والأحاديث:

أولًا: مذهب السلف: يرون عدم الخوض في مثل هذه الآيات والأحاديث وعدم التعرض لمعناها وقالوا: الله أعلم بمراده منها.

فلو أن قائلاً قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع وتابع له، فكيف تطالبنا ببيان كيفية سمعه وبصره وتكلمه واستواؤه ونزوله؟ وأنت لا تعلم كيفية ذاته، وإذا كنت تقر بأن لله عز وجل حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه سبحانه ثابت في نفس الأمر وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم [(١)].

ويقف السلف على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران :٧] .

وهذا المسلك هو الأسلم ؛ لأن وصف الله تعالى بهذه الصفات فوق مستوى العقول البشرية، وقد وردت النصوص الكثيرة عن السلف لتؤكد هذا المسلك.

١-روى أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن الأوزاعي قال: سُئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث فقالا: أَمِرُّوها كما جاءت. وروي أيضًا عن الوليد بن مسلم قال: سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد

---

(١) الروضة الندية (ص ٣٤) نقلاً عن الإيمان حقيقته وأركانه (ص ١٨)

والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات فقال: أَمِرُّوها كما جاءت وفي رواية: فقالوا أمروها كما جاءت بلا كيف.

٢-وروى الخلال بإسناد، كلهم أئمة ثقات، عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه :٥] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ المبين وعلينا التصديق [١].

٣-يقول ابن القيم: تنازع الناس «**يقصد الصحابة**» في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها على حقائقها مع فهم معانيها.

وقد ذهب الإمام الجويني في الرسالة النظامية في الأركان الإسلامية «**ذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى والذي نرتضيه رأيًا وندين لله به عقدًا اتباع سلف هذه الأمة فالأولى الاتباع وترك الابتداع**» [٢].

هذا هو رأي السلف إجراء النصوص على ظاهرها بدون تأويل، وهذا هو الذي نميل إليه ؛ لأنه ما عليه الصحابة والسلف الصالح.

المسلك الثاني: مسلك الخلف:

الذين ذهبوا إلى تأويل هذه الآيات على ما يليق بجلال الله تعالى وذلك أنهم قالوا: إنه قد ثبت مخالفة الله تعالى لجميع خلقه وأنه لا يشبه شيئًا من الحوادث، ولما كانت هذه الآيات والأحاديث توهم مشابهة الله لخلقه وجب تأويلها، وصرفها عن ظاهرها فقالوا في قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح :١٠] قدرته فوق قدرتهم فأولوا اليد بالقدرة وقالوا في قوله تعالى:

---

(١) انظر: مجموعه الفتاوي الأسماء والصفات (ص ٣٩- ٤٠).

(٢) العقيدة النظامية نقلاً عن العقيدة الإسلامية (ص ٣٢).

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود :٣٧] أي بحراستنا ورعايتنا فأولوا العين بالرؤية والحراسة والعناية، وأولوا الوجه في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن :٢٧] أي بالذات، أي تبقى ذاته تعالى (١).

ونحن نرى أن كل مسلك من هذين المسلكين قصد تنزيه الله تعالى عن مشابهته للمخلوقات، وبالتالي فهم متفقون على نفي المعنى الإنساني عن الله عز وجل وصرف حقيقة الألفاظ اللغوية عنه سبحانه وتعالى، والفارق الوحيد بين السلف والخلف هو أن السلف توقف عند ظاهر النصوص ولم يخوضوا في معناها ووكلوا العلم لله وقالوا الله أعلم بمراده (٢).

أما الخلف فقد أولوا اللفظ وصرفوه عن ظاهره إلى معنى يليق بالله تعالى، ولذلك نقرر أن الفريقين متفقان على تنزيه الله تعالى وعدم مشابهته لخلقه.

وكما يقرر الدكتور يحيى ربيع أن: «**هذين الرأيين - أعني التفويض والتأويل - لا يصح أن يكونا مادة للتكفير أو التفسيق أو حتى التجهيل بل لا يصح أن نجعل من هذا الخلاف وسيلة للتفرق والتشرذم ما دمنا متفقين على التنزيه وعدم التجسيم والتشبيه، مع ملاحظة أن هناك بعض الفرق لكل منهم رأي في الصفات وهؤلاء لا علاقة لهم بمذهب السلف والخلف وهم المجسمة الذين يرون أن الله جسمًا كالبشر، والمعطلة الذين يتصورون أن الله لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، فهؤلاء عطلوا الله عن صفاته العليا وأسمائه الحسنى**(٣).

* * *

(١) في العقيدة الإسلامية (ص ٣٣).
(٢) نفسه.
(٣) في الأسماء والصفات (ص ٨٨- ٩٠).

الفصل الثالث

شبهات غير الموحدين والرد عليها

توطئة

قبل الحديث عن الشرك ومظاهره والرد على شبهات المشركين، نحاول أن نبرز ما كانت عليه الأمم قبل الشرك وخاصة العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم.

لقد اعترف العرب بوجود الله الخالق للسماوات والأرض، وقد صور القرآن الكريم عقيدتهم في آيات متعددة منها قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون :٨٤-٨٩] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت :٦١] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف :٩] .

ولقد اعتبر العرب الإيمان بالله مسألة دين [١] ولم يبذلوا كبير جهد في الاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى؛ لأن وجود الله فطرة في نفوسهم، فالبعرة تدل على البعير والسير على المسير.

وكما يقول عامر بن الظرب العدواني: «**إني ما رأيت شيئًا قط خلق نفسه ولا رأيت موضوعًا إلا مصنوعًا ولا جائيًا إلا ذاهبًا ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء**» [٢].

---

(١) الحكمة العربية (ص ٢٩٩).

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (١١٩/٤).

ومع اعتراف العرب بوجود الله فإنهم كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله في خلق السماوات والأرض بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السماوات كما أخبر الله في غير ما آية [١]، ومع اعترافهم بوجود الله فقد عرفوا التوحيد قبل أن تدخل الأصنام الجزيرة العربية. وقد عرفوا التوحيد من طرق متعددة، منها:

١-**الفطرة**: يقول تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم :٣٠]، والفطرة هي ما أودع في النفوس من الإيمان بوجود الله وتوحيده.

٢-**الأنبياء**: يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر :٢٤]، فالآية تشير إلى أنه ما من أمة إلا وأرسل الله إليها نذيرًا والرسل تأتي بالتوحيد وعبادة الله وحده، وهناك بعض الروايات تذكر أن آدم عليه السلام كان مسكنه الحرم وأخبر القرآن الكريم أن إبراهيم وإسماعيل رفعا القواعد من البيت، يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة :١٢٧][٢].

٣-**الصحف القديمة**: وأشهرها صحف إبراهيم وموسى. وقد أورد ابن إسحاق رواية فيها: «**أن قريشًا وجدوا في الركن كتابًا بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود فإذا هو: أنا ذو بكة خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتها تسعة أفلاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في الماء واللبن**» [٣].

ونص آخر أورده ابن إسحاق ومفاده أنه وجد في الكعبة حجر قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة مكتوب فيه من يزرع خيرًا يحصد غبطة ومن يزرع شرًا

---

(١) الإيمان لابن تيمية (ص ٧٢).

(٢) انظر: الحكمة العربية (ص ٢٧٩- ٢٩٨).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٢٠٢- ٢٠٣) وأخشباها: أي جبلاها.

يحصد ندامة [(١)].

فهذه الصحف كانت من ضمن المصادر التي عرف العرب من خلالها وحدانية الله. وكما يقول أستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي: «**وعلى فرض صحة هذه الروايات وليس هناك مبرر لرفضها فإن تلك الصحف والأخبار كانت مصدرًا للتوحيد في الوقت الذي تصلح أن تكون أمارات وشواهد قاطعة على بقاء التوحيد وأسبقيته**» [(٢)].

ويدل على وجود التوحيد قبل عبادة الأصنام ما أورده الدكتور (جواد علي) نقلاً عن المسعودي من أن بعض الحنفاء ضجوا من تغيير عمرو بن لحي للحنيفية واستبداله الأصنام بها، يروي المسعودي شعرًا عن (شحنة بن خلف) أو سحنة بن خلف الجرهمي يقول فيه:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبدا ... فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل ... سيصطفي دونكم للبيت حجابا [(٣)]

وقد انحرف العرب عن التوحيد وعبدوا مظاهر وثنية مثل سائر الأمم من قبلهم ولذا فقد كان محل النزاع بين الرسل وبين أقوامهم توحيد الله وعبوديته يقول (الشهرستاني): كان محل النزاع بين الرسل وبين الخلق التوحيد، يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر :١٢] [(٤)].

وقد توجه العرب مثل غيرهم من الأمم إلى بعض المظاهر المادية كالأصنام والكواكب وغيرها بالعبادة وتقديم القرابين، وسنتحدث عن الوثنيين

---

(١) نفسه (١/٢٠٣).
(٢) الحكمة العربية (ص ٢٩٨- ٢٩٩).
(٣) المفصل في تاريخ العرب نقلاً عن المسعودي (٢/٢٩- ٣٠).
(٤) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ١٢٤) والتفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود (١/٧٢).

المشركين من العرب خاصة، مشيرين إلى من اشترك معهم من الأمم السابقة في التوجه إلى هذه المظاهر المادية ، ونحن نعتبر أن الرد على شبهة المشركين من العرب رد على غيرهم إذ إن أصول شبهاتهم واحدة، وأيضًا تفنيد شبهاتهم أصولها واحدة [١].

* * *

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٨- ١٩).

المبحث الأول

الوثنيون المشركون

هؤلاء هم الذين يدينون بوجود إله ويتخذون معه آلهة أخرى في صور شتى، منها:

عبادة الأصنام:

من المظاهر الوثنية التي توجه إليها الماديون المؤلهون، الأصنام التي تعد عبادتها أقدم عبادة؛ لأن نوحًا عليه السلام وهو أقدم الأنبياء جاء بالرد على عبدة الأصنام، ومن ثمَّ فإن عبادتها كانت موجودة قبل نوح وأكثر أطراف الأرض مستمرون على عبادتها [(١)].

ولقد عبدها العرب ونصبوها حول الكعبة، وقدموا لها القرابين، وقاتل من قاتل من المشركين بسبب التمسك بعبادتها ، وتدور شبهة عبادة الأصنام عند العرب خاصة حول:

أولاً: اعتقادهم أنها تقربهم إلى الله زلفى:

وقد صور القرآن الكريم هذه الشبهة على لسانهم في قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر :٣] .

---

(١) عبد الأصنام من الأمم القديمة على سبيل المثال لا الحصر: المصريون الذين قدسوها واتخذوا من صور ملوكهم آلهة، نحتوها وتوجهوا إليها بالعبادة وما زالت التماثيل التي عبدها المصريون من دون الله قائمة إلى يومنا هذا ، وعبدها الهنود والبوذيون وتوجه إليها الصينيون. انظر: ديانة مصر القديمة (ص ١٢١)، وانظر مقال: الحياة في مصر في الدولة الوسطى، ضمن تاريخ العالم (٥٧٣/٣)، وانظر: البيروني تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٨١)، وانظر: الهند القديمة (ص ١٥٢) ، وانظر: في عبادة الصينيين للأصنام: مروج الذهب للمسعودي (١١٧/١) والفهرست لابن النديم (ص ٤١٢).

ثانيًا: اعتقادهم أن الأصنام تشفع لهم عند الله:

وقد عرض القرآن الكريم لهذه الشبهة في آيات كثيرة منها هذه الآيات:

١-في سورة يونس يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس :١٨].

٢-في سورة الزمر يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر :٤٣].

وقد ورد أن العرب كانت تتشفع [١] باللات والعزى وترجو شفاعتهن، وورد قولهم: واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى. فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى [٢]. وقد كانت قريش تردد ذلك في طوافهم حول الكعبة.

ثالثًا: تقليد الآباء والأجداد:

لقد عبد العرب الأصنام وكان من أسباب عبادتهم لها تقليدهم لآبائهم وأجدادهم، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة :١٧٠].

وتعدى الأمر منهم إلى حد الافتراء على الله بفعلهم الفواحش وزعمهم أن الله أمرهم بها وأنهم وجدوا آباءهم عليها، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف :٢٨].

وقد تكررت هذه الشبهة عند قوم إبراهيم [٣]، وقوم صالح ، وقوم شعيب [٤]، وقد جمع القرآن القائلين بهذه الشبهة في آية واحدة من سورة

(١) انظر: موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية (ص ٢٩- ٣١) للشيخ حسن خالد مفتي لبنان، دار الإنماء العربي الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م.
(٢) الأصنام لابن الكلبي (ص ١٨).
(٣) سورة الأنبياء الآيات: (٥١- ٥٣).
(٤) سورة هود الآيات: (٦٢- ٨٧).

الزخرف في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف :٢٣] .

ويوم القيامة يبين الله عز وجل سبب ضلال أهل النار وذلك بتقليدهم واتباعهم لسادتهم وكبرائهم.

رابعًا: تعليق عبادتهم للأصنام على المشيئة والقدر:

يعرض الله عز وجل شبهتهم في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام :١٤٨].

وفي سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل :٣٥] .

وفي سورة الزخرف يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف :٢٠] .

هذه مجمل الشبه التي كررها عباد الأصنام متذرعين بها لصحة عبادتهم لها، والقرآن حين يعرض شبهة عباد الأصنام لا يخص العرب وحدهم؛ لأنه لم ينزل لهم فحسب وإنما يعرض شبهة كل من قال بقولهم من المتقدمين والمتأخرين ؛ لأن الانحراف مصدره واحد . يقول تعالى ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة :١١٨].

وتبعًا لعبادة العرب للأصنام فإنهم أشركوهم مع الله في التشريع والأمر والنهي وقسموا لهم نصيبًا من أنعامهم، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا

فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦] . ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩].

الرد على شبهات المشركين:

أولًا: بالنسبة لاعتقادهم أن الأصنام تقرب إلى الله زلفى. نرى أن القرآن الكريم يجيب عليهم بعدة أجوبة منها:

أ-التهديد واتهامهم بالكذب الصريح:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣] .

والقرآن الكريم أحيانًا يقتصر في الجواب على مجرد التهديد كما في هذه الآية، وذلك لأن صاحب الباطل إذا ذكر مذهبًا وكان مصرًّا عليه فالطريق في علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار من قلبه فإذا زال الإصرار من قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل على بطلانه فيكون أفضى إلى المقصود.

وبعد التهديد رماهم بالكذب؛ لأن من أصر على الكفر بقي محرومًا من الهداية وهم قد كذبوا لوصفهم الأصنام أنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض [(١)]، والجواب بشطريه مبني على رد الدعوى في الشبهة من أساسها.

* * *

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٦/٢٤١- ٢٤٢) وأبو السعود (٤/٤٥٥- ٤٥٦).

ب-عدم المساواة بين من يخلق ومن لا يخلق:

إن هذه الأصنام لا تحمل حياة، ولا تسمع ولا تبصر وما دامت لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا فكيف تملك لغيرها؟ ويستخدم القرآن الكريم في الرد على المشركين ما يعرف عند العلماء بدليل المقابلة، أي المقابلة بين من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، وبين القادر على كل شيء، يقول تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد :١٦].

والمقابلة بين الأعمى والبصير **«الأعمى من لا يدرك الحقائق، والبصير من يدركها، والظلمة التي تعتم النفس والنور الذي يشرق به القلب ومن يخلق ومن لا يخلق ومن عنده أدنى مُسكة من العقل يوقن بأن الأصنام عمياء صماء لا تخلق فكيف تقرب أحدًا عند السميع البصير الحي الخالق الواحد القهار؟** [(١)].

ومرة أخرى يتحداهم الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **[الأحقاف :٤].**

وهذه الآية وغيرها كثير من الآيات تبين أن الجماد الذي ليست فيه حياة أصلاً.. ولا يسمع ولا يبصر ولا يصح أن يعبد من دون الله [(٢)]، فهي لم تخلق أي جزء من أجزاء العالم ولم تعن الخالق على خلقه.

وأخيرًا يعدد الله نعمه على خلقه، من خلق الإنسان وخلق الأنعام وما فيها

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (١١/٣١، ٣٢)، والمعجزة الكبرى للشيخ أبي زهرة (ص ٣٥٥، ٣٥٦).

(٢) القرطبي (١٦/١٨٣).

من منافع كثيرة للإنسان ثم أنزل الماء من السماء لإنبات الزرع والانتفاع به، وتسخير الشمس والقمر والنجوم وتسخيره البحر وما يستخرج منه من الطعام والحلية، وحفظ الأرض بالرواسي الشامخات [(١)]، ثم يقابل سبحانه بين من خلق هذه الأشياء ومن لا يخلق من الأصنام وغيرها، يقول سبحانه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل :١٧].

يقول الرازي: «**اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل شرحًا وتفصيلًا لأنواع نعم الله تعالى استنكر أن يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه، لا سيما إذا كان المعبود جمادًا لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال:** ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ [النحل :١٧] أي: من يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر على شيء أصلاً، فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ويكفي أن تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، والأصنام جمادات محضة وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار، فكيف تقدمون على عبادتها وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها؟» [(٢)].

وما دامت الأصنام لا تحمل حياة، فهي لا تخلق ولا تقدر على شيء حتى ولو كان ذبابة، وقد استخدم القرآن الكريم مع المشركين ضرب الأمثال، ومن هذه الأمثلة ما ورد في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج :٧٣] .

وهذه الآية من أبلغ ما أنزل الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة عليهم بأن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالإلهية - التي تقضي القدرة على المخلوقات والإحاطة بالمعلومات - صورًا وتماثيل

(١) سورة النحل الآيات: (٤- ١٦).
(٢) التفسير الكبير للرازي (١٢/٢٠) بتصرف.

يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله وأذله وأصغره، وأحقره ولو اجتمعوا له، وخص الله الذباب بالذات لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته فإذا كانت الأصنام لا تقدر على خلق ذبابة أو استنقاذ شيء منها فكيف تقدر على أن تكون آلهة مطاعة؟ وهذه الآية أقوى الحجج وأوضح البراهين (١).

هذه الاستدلالات مجتمعة الغرضُ منها بيان عجز الأصنام عن فعل شيء أو خلقه فكيف تعبد ويتقرب لها؟ فإذا كانت الأصنام قد عجزت عن تغيير سنة واحدة من سنن الله في الكون وعجزت أن تخلق ذبابة بل عجزت أن تستنقذ ما استلبه الذباب منها. فليست بآلهة ؛ لأن من خصائص الإله القدرة العامة الشاملة (٢).

ج-عدم استجابة الأصنام للمشركين:

من الوجوه التي رد الله عز وجل بها على المشركين عدم استجابة الأصنام لهم، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف :٥-٦].

يقول الرازي: إنه لا أمر أبعد عن الحق وأقرب إلى الجهل ممن يدعوا من دون الله الأصنام فيتخذها آلهة ويعبدها وهي إذا دعيت لا تسمع ولا تصح منها الإجابة لا في الحال ولا بعد ذلك اليوم إلى يوم القيامة.

وأنزل الله الأصنام منزلة العقلاء ووصفها بالغفلة وهي جمادات؛ لأن المشركين لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب (٣)، في الدنيا والآخرة، وقد وردت آيات عدة تبين تحدي الله للمشركين يوم القيامة أن يأتوا بشركائهم (٤).

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣/٢٢- ٢٣) والقرطبي (١٦/٩٧) وأبو السعود (٤/٣٤).

(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام (١/٩٠).

(٣) التفسير الكبير للرازي (٨/٢، ٥ - ٦).

(٤) انظر: سورة القصص الآية: ٦٤، والأنعام الآية: ٢٢، والنحل الآية: ٢٧، والقصص الآية: ٦٢، ٧٤، فصلت الآية: ٤٧، والقلم الآية: ٤١.

وبعد هذه الردود المقنعة، نلاحظ أن القرآن رد تلك الدعاوى من أساسها واتهمهم بالكذب وهددهم بما سيحدث لهم يوم القيامة، ثم فندها على احتمال التسليم بوجودها، وجاء التفنيد على أن الأصنام لا حياة لها ولا تسمع ولا تعقل ولا تخلق شيئًا ولا تستجيب لمن يدعوها، فضلاً عن أن تسمعه أو تبصره، وهكذا سد القرآن الكريم كل الشبه التي احتج بها المشركون في دعواهم أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى.

وبالدليل العملي أثبت القرآن الكريم ذلك في قصة الخليل إبراهيم عليه السلام وتكسيره للأصنام، لقد أفحمهم سيدنا إبراهيم عليه السلام حين سألوه: مَنْ كَسَّرَ الأصنام؟ فأشار إلى كبيرهم وطلب منهم سؤاله، فلما اعترفوا أمامه أن الأصنام لا تنطق نكسوا على رءوسهم وأجابوا بخزي: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء :٦٥] فتلقف إبراهيم منهم هذا الاعتراف وسفَّه عقولهم ؛ لأنها تعبد من لا يملك الدفاع عن نفسه فضلاً عن أن يوفره لغيره، ولما أفحمهم وعجزوا عن مناقشته قالوا ما حكاه القرآن عنهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء :٦٥-٦٧] [(١)].

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تثبت عجز الأصنام وأنها لا تملك لنفسها شيئًا والذي يدعي ويحاول ذلك فيأت بالدليل والبرهان على دعواه، ولا حجة ولا برهان ولا دليل عند المشركين على ما يدعونه للأصنام من أنها تقربهم إلى الله زلفى.

ثانيًا: الرد على اتخاذ الأصنام شفعاء عند الله:

من البداية يصف الله عز وجل من يدعي أن الأصنام تشفع عند الله، بالجهل والكذب، وهذا وحده كافٍ لعدم الالتفات إليهم، ويكمن الرد على

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (٥٧٨/٢- ٥٧٩) والقرطبي (٢٩٨/١١- ٣٠٠).

المشركين في دعواهم في نقاط هي:

أ-عدم وجود الشفاعة من الأصنام أصلاً:

لقد توجهت بعض آيات القرآن الكريم لتأكيد هذا الأمر، يقول تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس :١٨] .

والمعنى: أتخبرونهم بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم، وإذا لم يكن معلومًا له وهو العالم المحيط بجميع المعلومات لم يكن ذلك شيئًا؛ لأن الشيء ما يعلم به ويخبر عنه فكان خبرًا ليس له مخبر عنه، والمراد بنفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه وبيان أنه لا وجود له ألبتة ؛ لأنه لو كان موجودًا لكان معلومًا لله تعالى، وحيث لم يكن معلومًا لله وجب ألا يكون موجودًا (١).

يقول الزمخشري: «**فإن قلت: كيف أنبئوا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام وإعلام بأن الذي اعتقدوه باطل غير منطوٍ نحو على صحة، فكأنهم يخبرونهم بما لا يتعلق به علمه**» (٢).

ب-**إن الشفيع لا بد أن يكون من أرباب الجاه**: والأصنام لا جاه لها فالذي يشفع لا بد أن تكون له رجاحة عقل ومنزلة عند المشفوع له، والأصنام ليست كذلك، يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر :٤٣] .

والهمزة للاستنكار والاستقباح والتوبيخ، أي قل: أتتخذونهم شفعاء ولا يملكون شيئًا في الدنيا ولا يعقلون أمرًا فلا شفاعة لهم بداهة ؛ لأن الشفاعة

(١) الكشاف (٢/٢٣٠) والرازي (١٧/٦٠).
(٢) نفسه (٢/٢٣٠).

كلها لله الذي بيده ملك السماوات والأرض ولا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ومأذونًا له وكلاهما مفقود هنا [(١)].

يقول الرازي: «**اعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً فقالوا نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله تعالى. وتقرير الجواب: أن هؤلاء الكفار إما أن يطمع بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها، والأول باطل ؛ لأن هذه الأصنام لا تملك شيئًا ولا تعقل شيئًا فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها؟ والثاني باطل ؛ لأنه في يوم القيامة لا يملك أحد شيئًا، ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة فكأن الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره**» [(٢)].

ج-**تعليق الشفاعة على الإذن الإلهي**: إذا سلمنا جدلاً أن للأصنام شفاعة فلا شفاعة إلا بالإذن والرضا، والله سبحانه وتعالى لم يأذن ولم يحدثنا أن الأصنام تحمل هذه المزية، يقول الله سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم :٢٦] .

ومفاد هذه الآية أن الملائكة في السماوات وهم المقربون لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا بعد الإذن والرضا لمن يشاء الله منهم ، فما بال الأصنام التي اعتبرها القرآن لا حقيقة لها فما هي إلا أسماء سماها المشركون ما أنزل الله بها من سلطان ، يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ :٢٢-٢٣].

---

(١) أبو السعود (٤/٤٧١- ٤٧٢)، والقرطبي (١٥/٢٦٣- ٢٦٤).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٦/٢٨٥).

يقول ابن تيمية: فهذه الأربعة هي التي يمكن أن يكون لهم بها تعلق:

الأول: ملك شيء ولو قل.

الثاني: شركهم في شيء من الملك.

الثالث: المعاونة التي يصيرون بها أندادًا.

وهذه الأمور الثلاثة منتفية. فبقي:

الرابع: الشفاعة فعلقها بالمشيئة وهو لا يأذن إلا لمن يشاء ويرضى [(١)].

بهذه الوجوه فند القرآن الكريم كل ما يمكن أن يتعلق به المشركون من شفاعة الأصنام لهم، فشفاعة الأصنام غير موجودة وعلى فرض وجودها فإن الشفيع يجب أن يكون من أرباب الجاه والسلطان ورجاحة العقل، والأصنام لا شيء عندهم من هذه الأسباب، وأخيرًا على فرض الجاه والسلطان فإن الشفاعة لا بد أن تكون بالإذن والرضا من الله تعالى، والله سبحانه وتعالى لم يأذن لهم ولم يرض عنهم.

ويوفق ابن حزم بين هذه الآيات التي تثبت الشفاعة في القرآن الكريم والآيات التي تنفيها بقوله: «**صحت الشفاعة بنص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقينًا أن الشفاعة التي أبطلها الله عز وجل هي غير الشفاعة التي أثبتها عز وجل، وإذ لا شك في ذلك، فالشفاعة التي أبطلها الله عز وجل هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون في النار**» [(٢)].

ثالثًا: تقليد المشركين لآبائهم في الشرك:

إن التقليد متابعة بلا دليل أو برهان ويكون في العقائد وفى العبادات وهو في العقائد الصحيحة مختلف في صحته، وصحة إيمان المقلد، أما التقليد في

---

(١) توحيد الألوهية (١/١١٤- ١١٥).

(٢) الفصل لابن حزم (٤/٥٣).

الباطل فهو مرفوض شرعًا وعقلاً، وسنورد آراء المتكلمين في التقليد وحكم إيمان المقلد، ثم نتحدث عن تقليد المشركين ورد القرآن الكريم عليهم.

أولاً: التقليد في نظر المتكلمين:

يعرف التقليد بأنه الأخذ بقول الغير من غير أن يعرف دليله [١]، وهو ينقسم إلى التقليد في الفروع والتقليد في الأصول.

فأما التقليد في الفروع فهو جائز كما يقول القرطبي [٢].

وأما في الأصول: فهناك خلاف بين العلماء فيه، ويعرض ابن حزم آراء طوائف الإسلام فيه فيقول:

«ذهب محمد بن جرير الطبري والأشعرية كلهم حاشا السمناني إلى أنه لا يكون مسلمًا إلا من استدل وإلا فليس مسلمًا» [٣]، ويبدو أن النظر والتفكر والتدبر قد اشترطه علماء الإسلام لمعرفة الله ، ولذا فإن المدارس الكلامية كلها من اعتزالية وأشعرية وماتريدية وغيرها على إثبات النظر طريقًا إلى العلم [٤].

وقد أورد الشيخ البيجوري الأقوال في التقليد على هذا النحو، يقول وحاصل الخلاف فيه على أقوال ستة:

الأول: عدم الاكتفاء بالتقليد بمعنى عدم صحة التقليد فيكون المقلد كافرًا.

الثاني: الاكتفاء بالتقليد مع العصيان مطلقًا أي سواء كان فيه أهلية للنظر أم لا.

الثالث: الاكتفاء به مع العصيان إن كان فيه أهلية للنظر والاستدلال وإلا

---

(١) البيجوري على الجوهرة (ص ٣٦).

(٢) تفسير القرطبي (٢/٢١١).

(٣) الفصل لابن حزم (٤/٢٨).

(٤) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص ٣٤، ٣٥)، وغاية المرام في علم الكلام للأمدي (ص ١٨) هامش المحقق.

فلا عصيان.

الرابع: إن من قلَّد القرآن والسنة القطعية صح إيمانه لاتباعه القطعي، ومن قلد غير ذلك لم يصح إيمانه لعدم أمن الخطأ.

الخامس: الاكتفاء به من غير عصيان مطلقًا ؛ لأن النظر شرط كمال، فمن كان أهلية للنظر ولم ينظر فقد ترك الأولى.

السادس: إن إيمان المقلد صحيح، ويحرم عليه النظر وهو محمول على المخلوط بالفلسفة (١).

ويرجح البيجوري الرأي الصحيح من هذه الآراء بأن من قلد وفيه أهلية للنظر والاستدلال كان عاصيًا وإن لم يكن فيه أهلية لا يكون عاصيًا.

ويرفض ابن حزم تسمية اتباع الحق تقليدًا، ويسمي هذا الاتباع بالإيمان. أما التقليد فهو ما كان فيه اتباع للباطل.

يقول ابن حزم: «**إن التقليد لا يحل ألبتة وإنما التقليد أخذ المرء قولًا من دون رسول الله ﷺ** ممن لم يأمرنا الله عز وجل باتباعه قط، ولا بأخذ قوله بل حرَّم علينا ذلك ونهانا عنه وأما أخذ المرء قول رسول الله ﷺ الذي افترض علينا طاعته وألزمنا اتباعه وتصديقه وحذرنا عن مخالفة أمره وتوعدنا على ذلك أشد الوعيد فليس تقليدًا بل هو إيمان وتصديق واتباع للحق وطاعة لله عز وجل وأداء للمفترض» (٢).

وابن تيمية يرى أن كل من خالف الرسول ﷺ مقلد متبع لمن لا يجوز له اتباعه، وكذا من اتبع الرسول بغير بصيرة وتبيُن، فالتقليد المزعوم هو اتباع هوى من لا يجوز اتباعه، كالذي يترك طاعة رسل الله ويتبع ساداته وكبراءه (٣).

---

(١) البيجوري على الجوهرة (ص ٣٧، ٣٨).

(٢) الفصل لابن حزم (٤/٢٩- ٣٠).

(٣) مفصل الاعتقاد (٤/٢٠٠- ٢٠١).

كان هذا هو رأي علماء الإسلام في التقليد الحق إذا صح أن نسمي اتباع الحق تقليدًا، فإن من العلماء من منعه ومنهم من جوَّزه بالرغم من أنه في الحق، فما بالنا إذا كان التقليد في الباطل وهو ما حدث من المشركين.

ثانيًا: التقليد في الباطل:

التقليد في الباطل هو اتباع الآباء والأجداد والرؤساء والكبراء في غير ما أمر الله ، ولقد رد الله عز وجل على المشركين حين عللوا سبب كفرهم بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم وتتمثل ردود القرآن الكريم في الآتي:

١-**تسفيه عقول المقلدين**: وذلك ؛ لأن الإنسان ميزه الله عز وجل عن سائر الحيوانات بالعقل والتفكير. ووردت آيات كثيرة تحث الإنسان على النظر والتفكر وتخرجه من ربقة الجمود وتطلق له العنان في التعقل والتدبر ليصل عن طريق ذلك لمعرفة الحق والتمسك به.

والذين قلدوا آباءهم وأجدادهم ألغوا عقولهم، ومن ثم تعجب القرآن الكريم منهم وقد ناقشهم القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة :١٧٠] .

ويتعجب القرآن الكريم منهم. والمعنى أيتبعونهم ولو كان آباءهم لا يعقلون شيئًا من الدين ولا يهتدون إلى الصواب؟ (١) ويصفهم بالحيوانات التي لا تسمع ولا تعقل، يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة :١٧١]، أي أنهم في اتباعهم لآباؤهم وأجدادهم وهم على الباطل قد عطلوا مدارك الفكر والسمع والبصر التي أعطاهم الله إياها ، وها منتهى الزراية بمن يعطل الفكر ويغلق منافذ المعرفة والهداية (٢).

---

(١) الكشاف (٣٢٨/١).
(٢) ظلال القرآن (١/١٥٥- ١٥٦).

يقول صاحب غرائب آي التنزيل: «**فإن قيل: ما وجه صحة التشبيه في قوله تعالى:** ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ [البقرة :١٧١] وظاهر تشبيه الكفار بالراعي؟ قلنا: فيه إضمار تقديره: ومثلك يا محمد مع الكفار كمثل الراعي مع الأغنام، أو تقديره: ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعي. أو مثل واعظ الذين كفروا كمثل الناعق بالبهائم. أو مثل الذين كفروا في دعائهم الأصنام كمثل الراعي.

فإن قيل: كيف خص المنعوق بأنه لا يسمع إلا دعاء ونداء مع أن كل عاقل كذلك أيضًا لا يسمع إلا دعاء ونداء؟

قلنا: المراد بقوله: لا يسمع أنه لا يفهم، كقولهم: أساء سمعًا فأساء إجابة أي أساء فيهما [(١)] وهو تجريح».

ب-**وصفهم بالكذب والافتراء على الله**: ذلك بأنهم ادعوا زورًا وبهتانًا أن اقترافهم الفواحش إنما هو لتقليد آبائهم وتنفيذهم لأمر الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[الأعراف :٢٨]**.

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا وهذا الشيء قد ابتدعوه من عند أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنكر الله عليهم ذلك [(٢)].

يذكر الرازي أن المشركين كانوا يحتجون على أقوامهم على فعل الفواحش بأمرين:

الأول: التقليد: وهذا الأمر مسكوت عنه؛ لأنه إشارة إلى محض التقليد

---

(١) غرائب آي التنزيل (٢١/١) ملحق مجلة الأزهر عدد المحرم ١٤١٠هـ.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٠٨/٢).

وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة فلو كان التقليد طريقًا حقًّا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًا، ومعلوم أنه باطل، ولما كان فساد هذا الطريق زاهرًا جليًّا لكل أحد لذا لم يذكر الله تعالى الجواب عنه.

الثاني: أمر الله بها: لقد كذبهم الله في زعمهم وافترائهم عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف :٢٨] .

فالله لا يأمر إلا بالقسط ثم بين محض افترائهم على الله في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف :٢٨] والمراد من هذا الاستفهام: أنكم تقولون: إن الله أمركم بهذه الأفعال المخصوصة، فعلمكم بأن الله أمركم بها حصل لأنكم سمعتم كلام الله ابتداء من غير واسطة أو عرفتم ذلك عن طريق الوحي والأنبياء.

أما الأول: فمعلوم الفساد بالضرورة ؛ لأن الكلام لا يكون إلا ممن اصطفاهم الله من الأنبياء عن طريق الوحي.

وأما الثاني: فباطل على قولكم لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء على الإطلاق ، وإذا كان الأمر كذلك فلا طريق لهم إلى تحصيل العلم بأحكام الله تعالى، فكان قولهم: إن الله أمرنا بها قولاً على الله تعالى بما ليس معلومًا، وهو باطل [(١)].

وبهذه المناقشة القائمة على الحجة والإقناع يبطل الله عز وجل ما يتعلق به المشركون من التقليد وافتراؤهم على الله بادعائهم أنه أمرهم بالفحشاء.

ج-المكابرة والإصرار على الخطأ أساس التقليد:

إن القرآن الكريم يصور المشركين على مر الأزمنة وفي مختلف الأمكنة وهم يحتجون بتقليد الآباء على الباطل . والمقولة التي يرددونها لكل نبي أنهم

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (١٤/٥٥- ٥٦)، وروح المعاني للألوسي (٨/١٠٦- ١٠٧).

على دين آبائهم، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف :٢٣][١].

إن هذه الآية ساقها الله عز وجل بعد أن تسائل عن مصدر الشرك لدى المشركين فقال تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ [الزخرف :٢١]، والمعنى: هل أعطيناهم كتابًا من قبل شركهم فهم به مستمسكون أي: فيما هم فيه؟ أي: ليس الأمر كذلك لقوله عز وجل: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم :٣٥][٢]، أي: لم يكن ذلك.

فالمشركون لا مستند لهم فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة والمراد بها الدين، وقولهم وإنا على آثارهم مهتدون دعوى منهم بلا دليل [٣]، فليس من المنطق إذا قيل اتبعوا ما أنزل الله أن يقولوا بل نتبع ما عليه آبائنا؛ لأنه من الجائز أن يكون آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون، وليس من المنطق أن يلغوا عقولهم ويتخذوا من الألف ومن العادة والعرف مقياسًا يعرفون به الحق [٤]، إذ أن مصدر الحق هو الله، والمشركون لم يتبعوا العقل ولا النقل في تقليدهم للآباء والأجداد، وقد عرض عليهم الرسول ﷺ فيما يحكيه القرآن أن يأتيهم بأفضل وأهدى مما عليه آباؤهم وأجدادهم فماذا كانت النتيجة؟

يقول تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف :٢٤] ، أي: أن كل نذير قال لأمته أولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم القائم على الضلال وعدم الهداية؟ ولكنهم رفضوا

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٢٣، وانظر: الآية: ٧٨ من سورة يونس والآية: ٦٩- ٧١.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٦/٤).

(٣) المصدر السابق (٢٦/٤).

(٤) انظر: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٥٦- ٥٧).

وبينوا السبب الحقيقي لرفضهم وقالوا: إنا كافرون لا نريد الاهتداء ولا الاقتداء حتى وإن جئتنا بما هو أهدى مما نحن عليه فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف :٢٥][١].

يقول الأستاذ العقاد: «**ولعل أكبر الموانع في سبيل العقل عبادة الأسلاف التي تسمى بالعرف والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية والخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية، وهذه الموانع كلها موانع العرف والقدوة العمياء والخوف الذليل إنما تقوم وتبقى قائمة ما هان على الإنسان أن يعيش بغير عقل يرجع إليه في أكرم مطالبه الإنسانية وهو صلاح ضميره ولكنها تزول على الأثر يوم يرجع إلى عقله أمام كل عقبة من عقباتها وقد يشق عليه أن يذلل تلك العقبات أو يناجزها ولكنه حق العقل عليه ولا بد من حق تهون من أجله المشقة ؛ لأنها أهون من سلب الإنسان فضيلته العليا واستكانته إلى حياة لا تعقل أو حياة تعقل ولكنها تؤثر الحطة على علمها ما هو أرفع منها**»[٢].

وبعد أن يبين القرآن الكريم ضلال مقلدي الآباء والأجداد بإبراز أن تقليدهم لا يستند على كتاب يرشدهم إلى ذلك وإن كان معهم فليظهروه، وأيضًا لا يستند على عقل؛ لأن آباءهم على ضلال، ثم يعرض على لسان رسله أن يأتي لهم بالحق ولكنهم مصممون على الكفر والضلال، بعد ذلك كله يؤكد القرآن الكريم المسئولية الفردية للإنسان أمام الله، وأن الابن لا يتحمل وزر أبيه وأن الفرد سيحاسب عما اقترفت يداه.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام :١٦٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم :٣٩-٤٠] .

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٧/٢٠٦- ٢٠٧)، وأبو السعود (٤/٥٤٠)، والقرطبي (١٦/ ٧٤- ٧٥).

(٢) انظر: التفكير فريضة إسلامية (ص ١٨- ١٩) بتصرف.

فكما أن الإنسان لا يتحمل أوزار غيره كذلك يجب ألا يُحمّل الإنسان وزره لغيره وإلا لما استقامت الأمور ولما سارت الحياة.

وهناك آيات كثيرة فيها يتبرأ الأتباع من المتبوعين (١)، والسادة من الضعفاء (٢)، وفيها يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه (٣) وذلك يوم القيامة.

رابعًا: الرد على تعليقهم الشرك على القدر:

لقد احتج المشركون في دفع دعوة الأنبياء والرسل، بأن قالوا: كل ما حصل فهو بمشيئة الله تعالى وإذا شاء الله منا ذلك فكيف يمكننا تركه؟ لأنه ليس في وسعنا وطاقتنا أن نأتي بفعل على خلاف مشيئة الله.

ولقد رد عليهم القرآن الكريم دعواهم ووصفهم الله بالجهل والكذب.

أ-بالجهل: لأنهم لا علم لهم به ولا حجة وهذا يدل على فساد مذهبهم. ولو كان عندهم علم فليظهروه ولأنهم لم يظهروه فهم يدعون دعوى لا دليل عليها ولا تقوم على الحق وإنما تقوم على الظن؛ لأن اعتبار علة شركهم بالله تعالى هي المشيئة الإلهية فقط مع تجاهل إرادتهم واختيارهم لهذا الشرك اتباع للظن ومجافاة للحقيقة (٤)، ولقد رد الله عليهم وبيّن أن حجتهم داحضة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم مساكنهم ولذلك طالبهم الله بالبينة: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام :١٤٨] ، وهذا من التهكم والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة (٥).

ب-بالكذب: لأن قولهم كان على سبيل الاستهزاء والسخرية ودفعًا لدعوته

---

(١) انظر: الآيات (١٦٦- ١٦٧) من سورة البقرة.

(٢) انظر: سورة سبأ الآية: ٣١- ٣٣.

(٣) انظر: الآيات (٣٤- ٣٧) من سورة عبس.

(٤) التفسير الكبير للرازي (٢٢٦/١٣)، وانظر: القضاء والقدر (٢٣٣/١).

(٥) انظر: تفسير القاسمي (٢٥٤٤/٦).

ﷺ وفعلاً لعصيانه وعدم الانقياد لهديه، لا تفويضاً للكائنات إلى مشيئة الله تعالى ، فما صدر عنهم كلمة حق أريد بها باطل ولذلك وصفهم الله بالتكذيب لأنهم قصدوا تكذيب النبي ﷺ في وجوب اتباعه . يقول صاحب الانتصاف: «**أن الرد عليهم كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون الاختيار والقدرة وإن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار وزعموا أنهم يقيمون الحجة لأنفسهم فشبههم بمن اغتر بهذا الخيال فكذب رسل الله عز وجل وأشرك بالله واعتمد على أنه يفعل ذلك كله بمشيئة الله ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة . ثم بيَّن تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك وأن الحجة البالغة له لا لهم بقوله :** ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام :١٤٩] ثم أوضح تعالى أن كل شيء واقع بمشيئته وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعين بقوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام :١٤٩]»[١].

ثم إن احتجاجهم بالقدر حجة عليهم لا لهم إذ إنهم حين احتجوا بالمشيئة على كفرهم كان يجب عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من الإسلام فهو إنما وقع لهم بمشيئة الله ، ومن ثمَّ يجب أن لا يكون بينهم وبين المسلمين مخالفة ومعاداة بل موافقة وموالاة، ويلزم على قول المشركين أن كل ما خالف مذهبهم من النحل يجب أن يكون على حق لأنه بمشيئة الله وقدره [٢]، ولكن المشركين احتجوا بالقدر، فيما يتصورون أنه يعفيهم من المسئولية أمام الله، أما حين يلزمهم ذلك بمعاملة المسلمين بالمثل فإن موقفهم يختلف.

ويذهب ابن حزم إلى كذب وقع منهم لا بسبب مقالتهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام :١٤٨] ، ولكن بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ وتكذيب من قال مثل قولهم من السابقين لرسلهم، يذكر ابن حزم أن قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ

---

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٥٩/٢).

(٢) انظر: الألوسي (٥٢/٨)، والقاسمي (٢٥٤٤/٦).

﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام :١٤٨]، من أعظم الحجج على القدرية لأنه تعالى لم ينكر عليهم قولهم ولو أنكره لكذبهم فيه وإنما أنكر قولهم بغير علم وإن وافقوا الصدق بموافقتهم لكلامه عز وجل في قولهم أنه لو شاء ما أشركوا ولا آباؤهم ولا حرموا، وأخبر تعالى أنه لو شاء لهداهم فاهتدوا وبين أنه له الحجة عليهم في ذلك ولا حجة لأحد عليه، ثم بيَّن تعالى أنه إنما أنكر تكذيبهم لرسله [١]، ولذلك قال: «كذَّب» بالتشديد ولم يذمهم بالكذب في قولهم ذلك وإلا يقال كذب بالتخفيف إشارة إلى أن ذلك الكلام في نفسه حق وصدق [٢].

وقد دار خلاف بين المعتزلة وأهل السنة حول مشيئة الله ومشيئة العبد .. فالمعتزلة يرون أن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه، ويستدل «القاضي عبد الجبار» على ذلك بآيات منها قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف :٢٩][٣]، ويعلق على هذه الآية بقوله: «**فقد فوَّض الأمر في ذلك إلى اختيارنا فلولا أن الكفر والإيمان متعلقان بنا ومحتاجان إلينا وإلا كان لا معنى لهذا الكلام وتنزل منزلة قوله من شاء فليسود ومن شاء فليبيض، فكما أن ذلك سخف؛ لأن الإسوداد والإبيضاض غير متعلقين بنا كذلك في مسألتنا**» [٤].

أما أهل السنة: فيذهبون إلى أن الحوادث كلها مرادة من الله تعالى خيرها وشرها نفعها وضرها [٥].

وقد فند العلماء ما ذهب إليه المعتزلة. يقول ابن حزم في معرض تفنيده لما

---

(١) الفصل لابن حزم (٣/٨٧- ٨٨).

(٢) انظر: ابن حزم (٣/٨٧- ٨٨)، وانظر: القاسمي محاسن التأويل (٦/٢٥٤٤).

(٣) سورة الكهف الآية: ٢٩، ويستدل بالآيات من سورة البقرة رقم ٢٨، وسورة النساء ٣٩، والتوبة ٨٢- ٩٥، والفرقان ١٥، والسجدة ١٧، والرحمن ٦٠، والواقعة ٢٤، والحديد ٨، والمدثر ٤٩، هذه الآيات بها يستدل على أن العبد يخلق أفعال نفسه.

(٤) انظر: الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٣٦٠- ٣٦٢) بتصرف.

(٥) انظر: أصول الدين للبغدادي (ص ١٤٦- ١٤٧)، ولمع الأدلة للجويني (ص ٩٧).

ذهب المعتزلة إليه: «**ويكفي من هذا اجتماع الأمة على قول: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)، فهذا على عمومه موجب أن كل ما في العالم كان أو سيكون فقد شاءه الله تعالى نصًا ولا يحتمل تأويلًا على أنه أراد كون كل ذلك فمن ذلك قوله تعالى:** ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير :٢٨-٢٩] .

فنص الله تعالى نصًّا جليًّا على أنه لا يشاء أحد استقامة على طاعته تعالى إلا أن يشاء الله تعالى أن يستقيم، فلو صح قول المعتزلة إن الله تعالى شاء أن يستقيم كل مكلف لكان بنص القرآن كل مكلف مستقيم لأن الله تعالى عندهم قد شاء ذلك، وهذا تكذيب مجرد لله تعالى، فصح يقينًا لا مدخل للشك في صحته أنه تعالى شاء خلاف الاستقامة منهم ولم يشأ أن يستقيموا بنص القرآن» (١).

وينبغي أن نشير إلى أن عدم مشيئة الله تعالى لاستقامتهم راجعة إلى علم الله أنهم يستحبون الكفر على الإيمان، فالله علم منهم ذلك ولكن لم يجبرهم على الكفر؛ لأن العلم صفة انكشاف وليست صفة تأثير.

وممن جادل المعتزلة أيضًا الإمام الرازي، يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف :٢٩]، وهي الآية التي استدل بها القاضي عبد الجبار والزمخشري (٢). يقول الرازي: «**ولقد سألني بعضهم- أي المعتزلة- عن هذه الآية فقلت: هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا، وذلك لأن الآية صريحة في أن حصول الإيمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر وصريح العقل أيضًا يدل له فإن العقل الاختياري يمنع حصوله بدون القصد إليه وبدون الاختيار إذا عرفت هذا فنقول حصول**

(١) انظر: الفصل لابن حزم (٣/ ٨٢)،وانظر ردوده القيمة (٣/ ٨٣- ٩٢).
(٢) الكشاف (٢/٤٨٢).

ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدمه لزوم أن يكون كل قصد واختيار مسبوقًا بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارات إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضروري والاختيار الضروري»[١].

يقول صاحب الانتصاف: «إن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقًا له وإلى العبد من حيث كونه مقرونًا بقدرته واختياره ولا تنافي بين الإضافتين»[٢].

ويوفق ابن القيم بين آيات القرآن الكريم التي تثبت المشيئة لله في جميع الأمور وبين بعض الآيات الأخرى التي تثبت عدم رضاء الله عن الكفر والفساد. يقول في تحليله الرائع: «إن الله سبحانه له الخلق والأمر وأمره سبحانه وتعالى نوعان: أمر كوني قدري وأمر ديني شرعي، فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره كله داخل تحت مشيئته كما خلق إبليس وهو يبغضه وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعًا فهو محبوب للرب واقع بمشيئته كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني وما لم يوجد منه لم تتعلق به مشيئته ولا محبته فلفظ المشيئة كوني ولفظ المحبة شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى:

إرادة كونية فتكون هي المشيئة.

وإرادة دينية فتكون هي المحبة.

إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر :٧]، وقوله:

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١١٩/٢١).

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٤٨٢/٢).

﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة :٢٠٥] ، وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة :١٨٥]، لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره، فإن المحبة غير المشيئة والأمر غير الخلق [١]، وهذا البيان «لابن القيم» يرد على كثير من الاعتراضات التي من الممكن أن يوجهها البعض إلى القرآن الكريم في نسبته الهداية والمشيئة إلى الله أحيانًا وإلى العبد أحيانًا أخرى، فمشيئة الله عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائنًا ما كان من غير اعتبار الرضا أو السخط في شيء من الطرفين [٢].

تفنيد مزاعم المشركين فيما جعلوه لشركائهم من التحريم والتحليل:

لقد رد القرآن الكريم على المشركين الذين جعلوا لله نصيبًا ولشركائهم نصيبًا ولم يعدلوا فيما قسموه ولكنهم جاروا على حقوق الله في زعمهم وردوها للأصنام لأنهم كانوا إذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوضوا منه ما لله، وإذا ذهب ما لله بالإتفاق على الضيفان والمساكين لم يعوضوا منه شيئًا وقالوا الله غني وشركاؤنا فقراء [٣].

أ-بالنسبة لتقسيمهم نصيبًا لله ونصيبًا لشركائهم فإن الأساس الذي بنوا عليه تلك القسمة باطل؛ لأن الله له ملك السماوات والأرض، فتقسيمهم لله من باب الجهل منهم وعدم تقدير الله حق قدره.

وعلى فرض أن تقسيمهم هذا جائز إلا أنهم أساءوا في حكمهم، وقد ذكر الرازي وجوهًا عديدة في إساءتهم لله منها:

١-أنهم رجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانب الله تعالى وهو سفه.

---

(١) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة من التعليل (ص ٤٧- ٤٨).
(٢) انظر: أبو السعود (٥٣٩/٤).
(٣) القرطبي (٨٩/٧- ٩٠).

٢-أن ذلك الحكم حكم أحدثوه من قبل أنفسهم ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع فكان أيضًا سفهًا.

٣-أنه لو حسن إفراز نصيب الأصنام لحسن إفراز النصيب لكل حجر ومدر.

٤-أنه لا تأثير للأصنام في حصول الحرث والأنعام ولا قدرة لها أيضًا على الانتفاع بذلك النصيب فكان إفراز النصيب لها عبثًا.

والمقصود من حكاية هذه المذاهب الفاسدة أن يعرف الناس قلة عقول القائلين بهذه المذاهب وأن يصير ذلك سببًا لتحقيرهم في أعين العقلاء وألا يَلتفت إلى كلامهم أحد ألبتة [(١)].

ب-أما بالنسبة لتحريمهم ما في بطون البحائر والسوائب على بعض أولادهم دون البعض الآخر فما نزل منها حيًّا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث وما ولد ميتًا اشترك فيه الذكور مع الإناث.

فإن الله وصفهم بالكذب والافتراء عليه ، إذ لا علم لهم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما ذهبوا إليه، وسخر منهم واستنكر عليهم تحريمهم لأشياء لم يحرمها الله.

يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَاۚ﴾ [الأنعام :١٤٤]، يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم وذكر المشاهدة على مذهبهم ؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول، والمعنى أعرفتم التوصية به مشاهدين لأنكم لا تؤمنون بالرسل؟ [(٢)].

واتبع القرآن الكريم معهم طريقة السبر والتقسيم في الجدال معهم يقول

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٣/٢٠٥).

(٢) الكشاف (٢/٥٧).

النبي ﷺ فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله تعالى يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول: أنا الملك أنا الملك.. فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا لما قال الحبر تصديقًا له ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر :٦٧][١].

* * *

(١) صحيح مسلم (٢/ ٥١٥) طبعة عيسى البابي الحلبي.

الرابع: الأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه وبواسطة رسول كذلك لأنه لم يأت لهم رسول قبل النبي وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعي وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال [١].

ثانيا: عبادة الكواكب:

تعد عبادة الكواكب من الشيوع بحيث لم تخل أمة من عبادتها بعد انحرافهم عن عبادة الله عز وجل ووحدانيته، فقد توجه إليها المصريون فعبدوا الشمس وعللوا ذلك بأنها مصدر الحياة وكل ما على الأرض ، وأيضًا عبدوا القمر وربطوا به وجود الخير والزرع، وعبدوا الشعرى اليمانية ؛ لأن ظهورها يكون بمثابة وصول الفيضان ورمزًا لبدء السنة الزراعية [٢]. وعبادة الفرس للنار مشتقة من كونها تمثل الكوكبين العظيمين الشمس والقمر [٣]، وكانت عبادة الكواكب شائعة عن البابليين والكنعانيين والعبرانيين والهنود [٤]، والصينيون عبدوا الشمس والقمر وكان لكل منهما ملك يعبده الناس ويستعينون به [٥]، وعرفت عبادة الشمس والقمر والكواكب عند العرب في اليمن وفي الجزيرة العربية، وكانت علة عبادتهم للشمس أنها مصدر النباتات ولأنها تمدهم بالضوء والحرارة. وعُبد القمر لأنه كان هاديًا للرجال في حلهم وترحالهم، أما الكواكب فلأنهم كانوا يعتقدون أن لها تأثيرًا في المطر والرياح والزرع [٦].

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/١٣٦- ١٣٧) بتصرف.
(٢) انظر: قصة الحضارة (٢/١٨٩)، وديانات مصر القديمة (ص ٢٥- ٢٦).
(٣) الفرس إمبراطورية الشاه الأعظم. مقال ضمن تاريخ العالم (٢/٤٤٣).
(٤) قصة الديانات سليمان مظهر (ص ٨- ٩) وما بعدها، ودراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (١/٤٠٩).
(٥) مقدمة الحوار (ص ١٢).
(٦) انظر: المفصل (٦/٥٤- ٥٥).

وقد لخص الرازي شبهة عُبَّاد الكواكب في الشبه الآتية:

أولًا: أن الناس لما رأوا تغيرات أحوال هذا العالم الأرضي مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب كالفصول الأربعة، وظنوا أن السعادة والشقاوة مرتبطة بمنازل النجوم عبدوها من دون الله.

ثانيًا: أن الذين عبدوا الشمس والقمر اعتقدوا أن الله فوَّض تدبير كل واحد من الأقاليم إلى ملك يعينه.

ثالثًا: من الجائز أنهم اعتقدوا حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل [(١)].

وسنفند هذه الشبه مستندين إلى القرآن الكريم وإلى فهوم العلماء في الرد على عُبَّاد الكواكب.

الرد على شبه عباد الكواكب:

إن القرآن الكريم يقرر بداية أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله، وأنها من النعم التي أنعم الله بها على الإنسان فعلى الإنسان أن ينتفع بالنعمة وأن يشكر المنعم عليها، هذا ما يوجبه الله على الإنسان.

أما حين يتوجه الإنسان إلى النعمة وينسى صاحب النعمة فهنا يتدخل الله رب العالمين عن طريق أنبيائه ليصحح لعباده مفاهيمهم عن طريق رسله، ولذلك فإن أنبياء الله لهم مقامان في الرد على عباد الكواكب .

المقام الأول: إقامة الدلائل على أن هذه الكواكب لا تأثير لها في أحوال هذا العالم وأنها مسخرة بأمر الله [(٢)].

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢/١٣٠- ١٣١)، وانظر: (٣٦/١٣- ٣٧)، وانظر الملل والنحل للشهرستاني (٢/٧٧- ٧٨)، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (٤/١٤٦).

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي (٣٦/١٣).

وسنورد مجموعة من الآيات تقرر هذا الأمر، منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف :٥٤].

وفي وصفها بأنها مسخرات مذللات تابعات لتصرفه سبحانه وتعالى فيهن بما يشاء فيه دلالة على أنها لا تأثير لها بنفسها في شيء أصلاً، ولذلك قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف :٥٤] أي: هو الذي دبرها وصرفها على حسب إرادته [١]، وبعد أن جمعهم في آية الأعراف أفرد الشمس في آية وأبطل عبادتها وكذلك القمر وكذلك الكواكب.

وكان المنهج المتبع في الإبطال أنها لا تأثير لها وأنها مخلوقات من خلق الله، يقول سبحانه وتعالى مبطلاً عبادة الشمس في سورة النمل: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل :٢٤-٢٦] .

ويجمع الشمس والقمر معًا وينهى عن السجود لهما إذ السجود لا ينبغي أن يكون إلا الله، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت :٣٧].

وينهى عن عبادة الكواكب فيقول: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم :٤٩].

ومفاد هذه الآيات أن الشمس مسخرة لله سبحانه لا ينبغي السجود لها ولكن الله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، وقد جاء الأمر بصيغة

(١) روح المعاني للألوسي (١٣٨/٨).

التخصيص في آية سورة النمل، والنهي في سورة فصلت عن السجود للشمس ولا للقمر والأمر بالسجود لله وحده رب الشعرى؛ فلا ينبغي أن تعبد؛ وخص الله الشعرى بالذات ؛ لأن العرب كانت تعبده فأعلمهم الله عز وجل أن الشعرى مربوب وليس برب؛ لأنهم كانوا ينكرون ذلك، أكد ذلك بالفصل فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم :٤٩] للتأكيد على ذلك [١].

المقام الثاني: في إبطال شبهة عباد الكواكب يتمثل في أن الكواكب بتقدير أنها تفعل شيئًا ويصدر عنها تأثيرات في هذا العالم إلا أن دلائل الحدوث حاصلة فيها فوجب كونها مخلوقة، والاشتغال بعبادة الأصل أولى من الاشتغال بعبادة الفرع [٢]، ويندرج تحت هذا النوع مجموعة من الآيات على رأسها قصة سيدنا إبراهيم في إبطال عبادة الشمس والقمر والكواكب يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام :٧٦-٧٩].

لقد عرض الله ما فعله سيدنا إبراهيم في إبطال عبادة الكواكب فإنه عليه السلام لما عرف أن القوم على دين آبائهم وأجدادهم، وتقليدهم لهم. مال بهم إلى طريق يستدرجهم من خلاله إلى سماع الحجة، وذلك بأن ذكر كلامًا يوهم كونه مساعدًا لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه كان مطمئنًا بالإيمان. حتى إذا قام عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم لذلك الدليل أتم وانتفاعهم باستماعه أكمل [٣].

---

(١) انظر: القرطبي (١١٩/١٧)، وتفسير الرازي (٢٢/٢٩- ٢٣)، وانظر: فتح الباري (٤٩٠/٨- ٤٩١)، كتاب التفسير وبلوغ الإرب للألوسي (٤٢٠/٢)، وابن كثير (٣٦٠/٣- ٣٦١).

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي (٣٦/١٣).

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي (٥٠/١٣).

ونلاحظ أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عبَّر بالأفول عن حركة الكواكب والشمس والقمر وحدوثها بدلاً من الغروب مع أن الكلمتين تدلان على الحدوث، إلا أن الدليل الذي يحتج به الأنبياء في معرض دعوة الخلق إلى الله لا بد وأن يكون ظاهرًا جليًا، بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبي والعاقل، ودلالة الحركة على الحدوث وإن كانت يقينية إلا أنها دقيقة لا يعرفها إلا الأفضل من الخلق، أما دلالة الأفول فإنها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحد، فإن الكوكب سلطانه يزول وقت الأفول، فكانت دلالته على المقصود أتم (١).

وطريقة سيدنا إبراهيم تفسر المحاولة الاهتدائية كما تؤكد صورة التدرج النفسي في طريق الهداية عن طريق التجربة العقلية (٢) أمام الخصم.

ويلحق بالمقام الثاني الذي يدل على أن هذه الكواكب حادثة ولا تأثير لها ويجب الاشتغال بعبادة خالقها لا عبادتها آيات نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس :٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس :٣٨-٤٠] .

هذا عن الشمس والقمر أما عن النجوم فآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل :١٦-١٨].

وهذه الآيات تقرر جميعها أن الشمس والقمر مخلوقان لله رب العالمين ومسخران لبني آدم ليسيروا في نورهما ويعلموا من خلالهما عدد السنين

---

(١) التفسير الكبير (١٣/٥١- ٥٢)، وانظر: الكشاف (٢/٣٠- ٣٢).

(٢) صراع المذاهب والعقيدة في القرآن (ص ٣٣٣) عبد الكريم غالب الناشر دار الكتاب اللبناني الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

والحساب، وكل منهما لا يستطيع أن يخرج عما كلف به فلا الشمس تسرع في حركتها حتى تدرك القمر والقمر هو الآخر يسير بقدر لا يخرج عنه [(١)] والنجوم يهتدى بها.

والتعقيب: مَن الذي يستحق العبادة: الخالق أو المخلوق؟

ثالثًا: دعوى الولدية:

من الشُّبه التي أثارها المشركون زعمهم أن لله ولدًا، وهذا القول ليس مقصورًا على المشركين واليهود والنصارى فحسب، وإنما هذه الشبهة وجدت عند الأمم الوثنية قبل الإسلام، فالمصريون اعتبروا أن ملوكهم آلهة وأبناء آلهة.

والبوذية اعتبرت بوذا إلهًا وأمه والدة الإله [(٢)]، ونسجت حولهما من الأساطير ما أخرجهما عن نطاق البشرية، والعرب كانوا يعتبرون الملائكة بنات الله [(٣)]، وسنكتفي بمناقشة المشركين العرب في زعمهم أن لله ولدًا، تاركين مناقشة اليهود والنصارى إلى المبحث الخاص بهما.

تقوم شبهة المشركين على ادعاء أن الملائكة بنات الله، يقول تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات :١٥١-١٥٣] [(٤)]، ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف :١٥-١٦] .

هذه مجمل دعوى الذين قالوا إن لله ولدًا.. ولقد رد القرآن الكريم عليهم وبيّن أن قولهم باطل من وجوه:

---

(١) انظر: أبو السعود (٣٨٥/٤- ٣٨٦)، وانظر القرطبي (٩٢/١٠- ٩٤).

(٢) ديانات مصر القديمة (ص ٦١).

(٣) الفلسفة الهندية (ص ٢٦٣).

(٤) تفسير أبي السعود (٣٥٥/٤).

الوجه الأول: أن دعواهم لا دليل عليها من عقل أو نقل، فهم كاذبون في قولهم إن الملائكة بنات الله إذ لا حجة لهم ولا بينة ولذلك يسأل سبحانه إلى أي شيء استندتم في حكمكم هذا؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات :١٥٦] ، والسلطان يأتي بمعنى الحجة والبرهان أو الحجة والعلم والبيان فما هي حجتكم؟ وما هو علمكم الذي علمتم منه هذا؟ ولذلك تحداهم فقال: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات :١٥٧].

يذكر الرازي أن كلام المشركين في نسبة الولد إلى الله باطل من جهة الحس والخبر والنظر فأما الحس فمفقود؛ لأنهم ما شهدوا هذا الولد، وأما الخبر فمفقود أيضًا ؛ لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقًا قطعًا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة، وأما النظر فمفقود أيضًا ؛ لأن العقل يقتضي فساد مذهبهم، فالله أكمل الموجودات والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد بقوله: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات :١٥٣-١٥٤]، والمعنى أن العقل يقضي إسناد الأفضل إلى الأفضل لا إسناد الأدنى إلى الأفضل، فإن كان حكم العقل هو المعتد به كان قول المشركين باطلاً، وعلى هذا فإن ما ذهبوا إليه لم يدل على صحته لا الحس، ولا الخبر، ولا النظر، فكان المصير إليه باطلاً قطعًا [١].

وبعد أن يبطل القرآن الكريم شبهة المشركين من أساسها يناقشهم من زاوية أخرى وهي أنه على افتراض أن لله ولدًا فإنه لن يتخذ البنات ولكنه سيصطفي من خلقه ما يشاء، يقول سبحانه: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر :٤]، والمراد أن يقيم الدلائل الثابتة على كونه منزهًا عن الولد لأنه لو اتخذ ولدًا لما رضي إلا

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٦/١٦٧- ١٦٨).

بأكمل الأولاد وهو الابن فكيف ينسبون إليه البنت وهم لا يرضون ذلك لأنفسهم، يقول عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف :١٥-١٩].

إن القرآن الكريم يتعجب من جهل المشركين وينكر عليهم جعلهم لله جزءًا وهو الإناث دون الذكور مع أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن، والله عز وجل يعيب عليهم ما جعلوه له وكأنه يقول: هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إلى الله جائزة فرضًا وتمثيلاً أما تستحيون من الشطط في القسمة ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزئين وأعلاهما (١).

يذكر الرازي أن الله تعالى في هذه الآية: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف :١٦]، رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه، وذلك لأنه تعالى بيّن أن إثبات الولد لله محال، وبتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتًا أيضًا محال، أما بيان أن إثبات الولد لله محال فلأن الولد لا بد أن يكون جزءًا من الوالد وما كان له جزء كان مركبًا وكل مركب ممكن وأيضًا ما كان كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق، وما كان كذلك فهو عبد محدث فلا يكون إلهًا قديمًا.

وعلى تقدير ثبوت الولد فإنه يمتنع كونه بنتًا وذلك ؛ لأن الابن أفضل من البنت، فلو قلنا إنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله وذلك مدفوع في بديهة العقل (٢).

---

(١) الكشاف: (٣ظ ٤٨١- ٤٨٢).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٧/٢٠١).

الوجه الثاني: إن الله ليست له صاحبة فكيف يكون له ولد؟

إن القرآن الكريم يبطل ادعاءهم فيبين أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة ولا بد أن تكون الزوجة من جنس الزوج، ولذلك فإن الله نزَّه نفسه عن الولد والصاحبة فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:١٠١-١٠٢]، وهذا الطريق في المحاج هو ما يطلق عليه العلماء الاستدلال بالتعريف أي أن نفي الولد وإثبات الوحدانية جاء من التعريف بآثار الله [١] وخلقه، ومن كانت هذه صفاته وآثاره امتنع أن يكون له ولد أو شريك.

يقول ابن تيمية: «**فأخبر أن المتولد لا يكون إلا عن أصلين كما تكون النتيجة عن مقدمتين وكذلك سائر المعلولات المعلومة لا يحدث المعلول إلا باقتران ما تتم به العلة فأما الشيء الواحد فلا يكون علة ولا والدًا قط**» [٢]، وقد نفت الآية السابقة الولد من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه مبدع السماوات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف خالقها بالجسم ومن ثَمَّ لا يصح أن يكون والدًا.

الثاني: أن الولادة لا تكون إلا من زوجين من جنس واحد وهو متعال عن ذلك فلما لم يصح أن له صاحبة لم يصح أن له ولدًا.

الثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيًّا عن كل شيء والولد إنما يطلبه المحتاج، وقد ثبت أن الله غني عن العالمين [٣].

---

(١) المعجزة الكبرى (ص ٣٤٧- ٣٤٨).

(٢) نقض المنطق لابن تيمية (ص ١٠٧)، وانظر: (ص ١١١).

(٣) انظر في إبطال دعوى الولدية الكشاف (٤١/٢)، والتفسير الكبير (١١٦/١٤)، والقرطبي (٧/ ٥٣- ٥٤)، وانظر: درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية (٣٦٢/٧- ٣٦٩)، وانظر: الاستدلال القرآني (ص ٤٩).

وبعد أن يبطل القرآن الكريم شبهة المشركين في دعوى الولدية يقرر الله عز وجل الوحدانية في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون :٩١].

ولقد تضمنت الآية برهانًا عقليًا [(١)] على نفي الولد والشريك وهذا البرهان يعتبر من أوكد الأدلة لأنه يقتضي الصدق لا محالة [(٢)].

ونلاحظ زيادة «من» في قوله تعالى: ﴿مِن وَلَدٍ﴾ و﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وهذا يدل على أنه مستغن عن كل منهما في أي صورة من الصور أيًا كان الولد وأيًا كان الشريك [(٣)].

وفي سورة الإخلاص نفي للولد والشريك وإثبات للوحدانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص :١-٤] .

وقد نزلت هذه السورة حين جاء المشركون إلى النبي ﷺ يقولون: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص :١] إلى آخرها [(٤)].

وقد نفت هذه السورة أنواع الكفر الثمانية كما يذكر البيجوري فقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص :١] نفي للكثرة والعدد وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص :٢] نفي للقلة والنقص، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص :٣] نفي للعلة والمعلولية أي: أن يكون تعالى علة لغيره وأن يكون معلولاً لغيره، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص :٤] نفي للشبيه والنظير [(٥)].

---

(١) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٢٩).
(٢) الاستدلال القرآني (ص ٢١١).
(٣) الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٣٠).
(٤) لباب النقول في أسباب النزول (ص ١٥٤٣).
(٥) البيجوري على الجوهرة (ص ٦٩) بتصرف.

ويذكر ابن تيمية أن الله نزه نفسه في سورة الإخلاص عن الوالد والولد وكفَّر من جعل له ولدًا أو والدًا أو شريكًا، وسورة الإخلاص لم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن ما صح في فضلها وعليها اعتماد الأئمة في التوحيد، والله قد نفى عن نفسه فيها الأصول والفروع والنظراء وهي جماع ما نسب المخلوق إليه من الأوصاف التي لا تليق به سبحانه، فقوله: «لم يلد» رد لقول من يقول إن له بنين وبنات من الملائكة أو البشر أو يقول المسيح ابن الله أو العزير ابن الله وقوله لم يولد [1]، أي لم يصدر عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه سابقًا ولاحقًا، وقد نبه على عدم ولادته بالرغم أن أحدًا لم يقل به للإشارة إلى أنهما متلازمان إذ المعهود أن ما يلد يولد، وما لا يلد لا يولد، ومن قضية الاعتراف بأنه لم يولد الاعتراف بأنه لا يلد [2].

تعقيب:

بعد أن انتهينا من عرض شبه المشركين والرد عليهم في عبادتهم للأصنام والكواكب ودعواهم اتخاذ الله ولدًا.. نأتي بنماذج من الأدلة التي وردت في القرآن الكريم لإثبات الوحدانية ونفي الشريك في كل مظاهره، وقد سلك القرآن الكريم مسالك متعددة في إثبات الوحدانية ونفي الشريك لطرق متعددة.. تمثلت في:

١-نفي ما سوى الله.

٢-الأدلة الخطابية.

٣-الأدلة البرهانية.

الطريقة الأولى: اشتملت على صيغتين هما:

١-**أسلوب الاستثناء التام المنفي**: مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا

(١) توحيد الألوهية لابن تيمية (٢/٤٣٨- ٤٣٩) بتصرف.

(٢) أبو السعود (٤/٩١٣) بتصرف يسير.

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة :١٦٣]، ومثل قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة :٢٥٥]، ومثل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران :٦] ومثل قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران :٦٢].

وهذه الصيغة ترد كثيرًا فيما يقرب من تسع وخمسين [(١)] موضعًا تتحدث عن نفي كل ألوهية لغيره وتثبت في الوقت ذاته الألوهية له عز وجل.

يقول الرازي:

«معناه أنه واحد في الإلهية لأن ورود لفظ الواحد بعد لفظ الإله يدل على أن تلك الوحدة معتبرة في الإلهية لا في غيرها، ولما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة :١٦٣] أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول: هب أن إلهنا واحد فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا فلا جرم زال هذا الوهم ببيان التوحيد المطلق فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة :١٦٣]»[(٢)].

٢-**أسلوب الاستفهام الإنكاري**: وقد وردت آيات كثيرة بهذا الأسلوب الذي ينفي الشريك لله، أيًا كان ويثبت الوحدانية له سبحانه وتعالى يقول تعالى في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا

(١) انظر: الألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٢٦).

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٩٦/٤).

يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل :٥٩-٦٤][١]

ومعنى الآيات أإله آخر كائن مع الله الذي ذكر بعض أفعاله التي لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكًا له تعالى في العبادة، وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عما يشركونه به تعالى في ضمن النفي الكلي على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فإن أحدًا ممن له تمييز في الجملة كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأسًا لاسيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه تعالى [٢].

الطريقة الثانية: إثبات الوحدانية بالأدلة الخطابية:

وقد استخدم القرآن صيغتين لإثبات الوحدانية عن هذه الطريقة:

الصيغة الأولى: صيغة الإخبار:

مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَٰحِدُ الْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد :١٦].

يقول القرطبي: «بين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك فكيف يعلم أن الفعل من اثنين؟ والآية رد على الشركية والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله» [٣].

---

(١) وهناك من الآيات التي وردت بنفس الصيغة على سبيل المثال لا الحصر: الأنعام: (١٩، ٤٦)، والأعراف: (١٤٠)، ويوسف: (٣٩)، والقصص الآية: (٣٩).

(٢) أبو السعود (٢٠٩/٤).

(٣) القرطبي (٣٠٤/٩) بتصرف.

ومثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر :١٦][١].

الصيغة الثانية : الحصر : وقد وردت آيات متعددة بهذه الصيغة منها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام :١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل :٥١]. وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف :١١٠][٢].

وإن دل تعدد الصيغ في نفي الألوهية عن كل ما سوى الله تعالى ؛ لأن الشرك لما كان مستنكرًا مستقبحًا فالتنفير عنه يكون بالآيات الكثيرة التي تثبت الوحدانية ليصير توالي تلك الآيات سببًا لوقوف العقل على ما فيه من قبح، والله عز وجل قد نفى الشريك بكل معنى وصيغة يليقان بذاته، وبين أن الشرك منفي بكل وجه من الوجوه العقلية واللغوية وبكل صيغة دالة على ذلك [٣].

الطريقة الثالثة: إثبات الوحدانية بالأدلة البرهانية:

وهذه الطريقة تضمنتها بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء :٢٢]. وهذه الآية أخذ منها علماء الكلام ما يسمى بدليل التمانع.

يقول الأشعري في اللمع: **«إن قال قائل لم قلتم إن صانع العالم واحد؟ قيل: لأن**

---

(١) هناك آيات كثيرة وردت تثبت الوحدانية بصيغة الإخبار: البقرة: (١٦٣)، إبراهيم: (١٤٨)، والحج: (٣٤)، والنمل: (٢٢)، والعنكبوت: (٤٦)، والصافات: (٤)، وغافر: (١٦).

(٢) سورة كهف الآية: (١١)، والأنبياء الآية: (١٠٨)، وفصلت الآية: (٦)، وغيرها كثير.

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي (٤٧/٢٠)، والألوهية في الفكر الإسلامي (ص ١٢٨).

الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام ولا بد أن يلحقهما العجز أو واحدًا منهما لأن أحدهما إذا أراد أن يحيى إنسانًا وأراد الآخر أن يميته لم يخل أن يتم مرادهما جميعًا أو لا يتم مرادهما أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ويستحيل أن يتم مرادهما جميعًا أو لا يتم مرادهما أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ويستحيل أن لا يتم مرادهما جميعًا ؛ لأنه يستحيل أن يكون الجسم حيًا ميتًا في حال واحدة، وإن لم يتم مراهما جميعًا وجب عجزهما والعاجز لا يكون إلهًا، ولا قديمًا، وإن تم مراد أحدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما، والعاجز لا يكون إلهًا ولا قديمًا وهذا يؤكد قول ما قلناه على أن صانع الأشياء واحد وقد قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء :٢٢]» (١).

ويصوغ هذا الدليل بطريقة أخرى «**السعد التفتازاني**» في شرحه على العقائد النسفية فهو يذكر: أن واجب الوجود لا يصدق إلا على ذات واحدة ويسوق الآية السابقة ويستنبط منها أنه لو أمكن إلهان فأراد أحدهما حركة إنسان وأراد الآخر سكونه فإما يحصل الأمران فيجتمع الضدان أو لا يحصل فيلزم عجزهما. أو يحصل من أحدهما فيكون الآخر عاجزًا وهو أمارة الحدوث والإمكان لما فيه من شائبة الاحتياج، فالتعدد يستلزم لإمكان التمانع المستلزم للمحال فيكون محالاً، وهذا تفصيل ما يقال إن أحدهما إن لم يقدر على مخالفة الآخر لزم عجزه وإن قدر لزم عجز الآخر وبهذا يندفع ما يقال إنه يمكن أن يتفقا من غير تمانع أو تكون الممانعة والمخالفة غير ممكنة لاستلزامهما المحال (٢).

ويسوق «**عضد الدين الإيجي**» دليل المتكلمين المستنبط من الآية القرآنية على هذا النحو. يقول إن المتكلمين قالوا يمتنع وجود إلهين مستجمعين لشرائط الإلهية لوجهين:

---

(١) انظر: اللمع للأشعري (ص ٢٠- ٢١)، وانظر: نهاية الإقدام للشهرستاني والإرشاد للجويني (ص٥٤)، وانظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٣٦/٢)، وأبو السعود (٥١١/٤).

(٢) شرح التفتازاني على العقائد النسفية (ص ٦٢- ٦٣).

الأول: لو وجد إلهان قادران لكان نسبة القدورات إليهما سواء إذ المقتضى للقدرة ذاتهما وللمقدورية الإمكان فتستوي النسبة فإذا يلزم وقوع هذا المقدور المعين إما بهما وهو باطل لامتناع وقوع مقدور بين قادرين وإما بأحدهما ويلزم الترجيح بلا مرجح.

الثاني: إذا أراد أحدهما شيئًا فإما أن يمكن من الآخر إرادة ضده أو يمتنع وكلاهما محال [(١)].

وكما أن الآية تفيد دليل التمانع [(٢)] تفيد أيضًا دليل التوارد، أي على هذا

---

(١) المواقف لعضد الدين الإيجي (ص ٢٧٨- ٢٧٩).

(٢) مما تجدر الإشارة إليه أن دليل التمانع الذي ذهب إليه المتكلمون نقده بعض المتكلمين أنفسهم مثل الآمدي ونقده أيضًا ابن رشد في مناهج الأدلة.

أ-يقول الآمدي في غاية المراد: أما المتكلمون فقد سلك عامتهم في الإثبات رأيين ضعيفين: الأول: أنهم قالوا: لو قدرنا وجود إلهين وقدرنا أن أحدهما أراد تحريك جرم ما والآخر تسكينه. ص ١٥١ .

وساق دليل التمانع الذي ذكره المتكلمون. الثاني: أنهم قالوا: الطريق الموصل إلى معرفة الباري تعالى ليس إلا وجود المحادثات لضرورة افتقارها إلى مرجع ينتهي الأمر عنده وهي لا تدل على أكثر من واحد». انظر: غاية المرام في علم الكلام ص ١٥٣.

وبعد أن نقد الآمدي دليل المتكلمين ساق دليلاً رآه أكثر دقة من وجهة نظره من دليل المتكلمين يقول: «والصواب أن يقال: لو قدرنا وجود إلهين لم يخل إما أن يشتركا من كل وجه أو يختلفا من كل وجه أو يشتركا من وجه دون وجه. فإن كان الأول فلا تعدد ولا كثرة. وإن كان الثاني فلا محالة أنهما لم يشتركا في وجوب الوجود ولا فيما يجب لله من الكمالات ويستحيل عليه من الصفات وإذ ذاك فأحدهما لا يكون إلهًا وإن كان الثالث فتخصيص ما به الاشتراك بما به الافتراق في كل واحد منهما إما أن يستند إليه أو إلى خارج عنه فإن استند إما أن يكون ذلك له بالذات أو بالإرادة لا جائز أن يكون له بذاته وإلا لوجب الاشتراك فيه لضرورة أن المقتضى له فيهما واحد وإن كان ذلك له بالإرادة استدعى كونه متحققًا وموجودًا دون ما خصصه وهو محال، وإن كان ذلك مستندًا إلى خارج لزم أن يستند في وجوبهما كل واحد على صاحبه وهو ممتنع ومع كونه ممتنعًا فيلزم أن يكون كل منهما ممكنًا وجوده وهو محال» غاية المرام ص ١٥٣.

ب-أما ابن رشد: فهو ينقد دليل الأشاعرة على وجه الخصوص يقول: «أما ما تتكلفه الأشعرية من الدليل الذي يسمى بالممانعة والمستنبط من الآية الكريمة ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء :٢٢]، فشيء ليس يجرى مجرى الأدلة الطبيعية والشرعية أما كونه ليس يجري مجرى الشرع فلأن الجمهور لا يقدرون على فهم ما يقولون من ذلك فضلاً عن أن يقع لهم به إقناع. وأما كونه ليس يجري مجرى الأدلة الطبيعية فلأنهم قسموا الآية إلى ثلاثة أقسام وليس في الآية تقسيم ودليلهم الذي استعملوه هو الذي يعرفه أهل المنطق بالقياس الشرطي المنفصل، ويعرفونه هم في صناعتهم بدليل السبر والتقسيم» مناهج الأدلة ص ١٥٧- ١٥٨ بتصرف. وبعد أن ينقد دليل الأشاعرة يقول ابن رشد: «والمحال

التحصيل الحاصل، وليس بجائز أيضًا أن يوجد أحدهما البعض والثاني البعض الآخر لأنه يلزم عجزهما؛ لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سد على الآخر طريق تعلق قدرته به فلا يقدر على مخالفته، وهذا عجز (١).

ومن الآيات التي تبرهن على نفي الشريك وإثبات الوحدانية لله عز وجل قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون :٩١].

يقول البيهقي : «يعلم استغناء المصنوع بصانع واحد وعلو بعضهم على بعض وما يدخل من الفساد في الخلق من وجود آلهة معه، فيستدل بذلك على أنه إله واحد لا شريك له» (٢).

والآية فيها الاستدلال على نفي الشريك وإثبات الوحدانية، بالتسليم وهو فرض المحال إما منفيًا أو مشروطًا بحرف الامتناع ليكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه ثم يسلم تسليمًا جدليًا وعلى تقدير وقوع المسلم به جدلاً يدل على عدم فائدته ويكون معنى الآية ليس مع الله من إله ولو سلمنا أنه معه سبحانه وتعالى إلهًا لزم من ذلك التسليم بذهاب كل إله بما خلق وعلو بعضهم على بعض فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنظم أحواله والواقع خلاف ذلك ففرض إلهين فصاعدًا محال لما يلزم منه المحال ، والآية تفيد أنه لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهما بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين ووقع بينهم التغالب والتجارب كما هو جارٍ بين الملوك، وقد قام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب الوجود الواحد بالذات (٣).

الذي أفضى إليه دليل الكتاب ليس مستحيلاً على الدوام وإنما علقت الاستحالة فيه على وقت مخصوص وهو أن يوجد العالم فاسدًا في الآية ثم استثنى أنه غير فاسد فوجب ألا يكون هناك إلا إله واحد». مناهج الأدلة ص ١٥٩.

(١) شرح البيجوري على الجوهرة (ص ٦٦).

(٢) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد تصنيف البيهقي الشافعي بتصرف.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٣٧/٢)، وأبو السعود (٦٢/٤).

توحيد العبودية:

بعد أن أثبت القرآن الكريم الوحدانية بكل الأساليب كما رأينا من نفي الشرك وإثبات الوحدانية والاستدلال بالأدلة الخطابية والبرهانية، أكثر من التنبيه على العبودية له وحده وأوضح القرآن الكريم أن العبودية لله وحده كانت محور رسالة الأنبياء.

يقول تعالى عن دعوة نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف :٥٩].

وهي دعوة هود ، يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف :٦٥].

وهي دعوة صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف :٧٣].

وبالجملة فهي دعوة جميع الأنبياء يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥].

ويقول: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف :٤٥].

والمعنى: أن الأنبياء جميعًا جاءوا بالتوحيد وعبادة الله ، فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء موجود والدليل إما معقول أو منقول، وقال قتادة: لم يرسل نبي إلا بالتوحيد والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد [١].

وبناء على هذا فإن الإيمان المعتد به في الشرع هو ما كان شاملاً لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وهما متلازمان لدى المؤمن على وجه شرعي

---

(١) القرطبي (٢٨٠/١١).

ولكنهما منفكان لدى المشرك الذي يرى الله فاعلاً ولكن لا يعبده ولذلك فإن الإيمان الشرعي المقبول عند الله هو الجامع للتوحيد بكل معناه التوحيد فعلاً والطاعة خلقًا وعبادة مسيطرة وخضوع هيمنة واستسلام [(١)]. ومن هنا فإن أي إيمان بدون طاعة وامتثال فهو إيمان ناقص، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة :٥].

* * *

(١) الألوهية في الفكر الإسلامي (١٣٤- ١٣٥).



الفهرس



فهرس الموضوعات

* * *

العقيدة الإسلامية

في مواجهة التيارات الإلحادية

يعرض فيه المؤلف معنى العقيدة وأهميتها ومدى الحاجة إليها - ويدرس بعض المسائل العقدية وكيف كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يفهمونها كمسألة الأسماء والصفات والقضاء والقدر وغيرها - ثم يرصد الكتاب بداية ظهور الاختلاف بين الفرق حول أصول المسائل العقيدية، وانتهى الكتاب إلى أنه كلما بعد العهد عن زمن الرسول ﷺ - ظهرت بعض الفرق التى تبتعد فى فهمها لأمور العقيدة عن فهم الصحابة والتابعين.

وقد تناول الكتاب افتراق الأمة وسببه - ثم ناقش. منكرى الألوهية قديما وركز حديثا على التيارات الإلحادية. كالتى تقول بأزلية الكون والقائلين بالصدفة والتطور فى خلق الكائنات - وعرض الكتاب للوحدانية فى الذات والأسماء والصفات ثم ناقش الكتاب الأدلة العقلية والنقلية شبه غير الموحدين وانتهى إلى ضرورة الرجوع إلى المنهج القرآنى فى إثبات الوحدانية بالأدلة البرهانية والإقناعية والخطابية، وأن هذه الأدلة هى ملاك الإقناع للنفس البشرية بتوحيد الله سبحانه وتعالى الذى جاءت به جميع الرسالات من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ.

I.S.B.N. 977 - 344 - 093 - 1